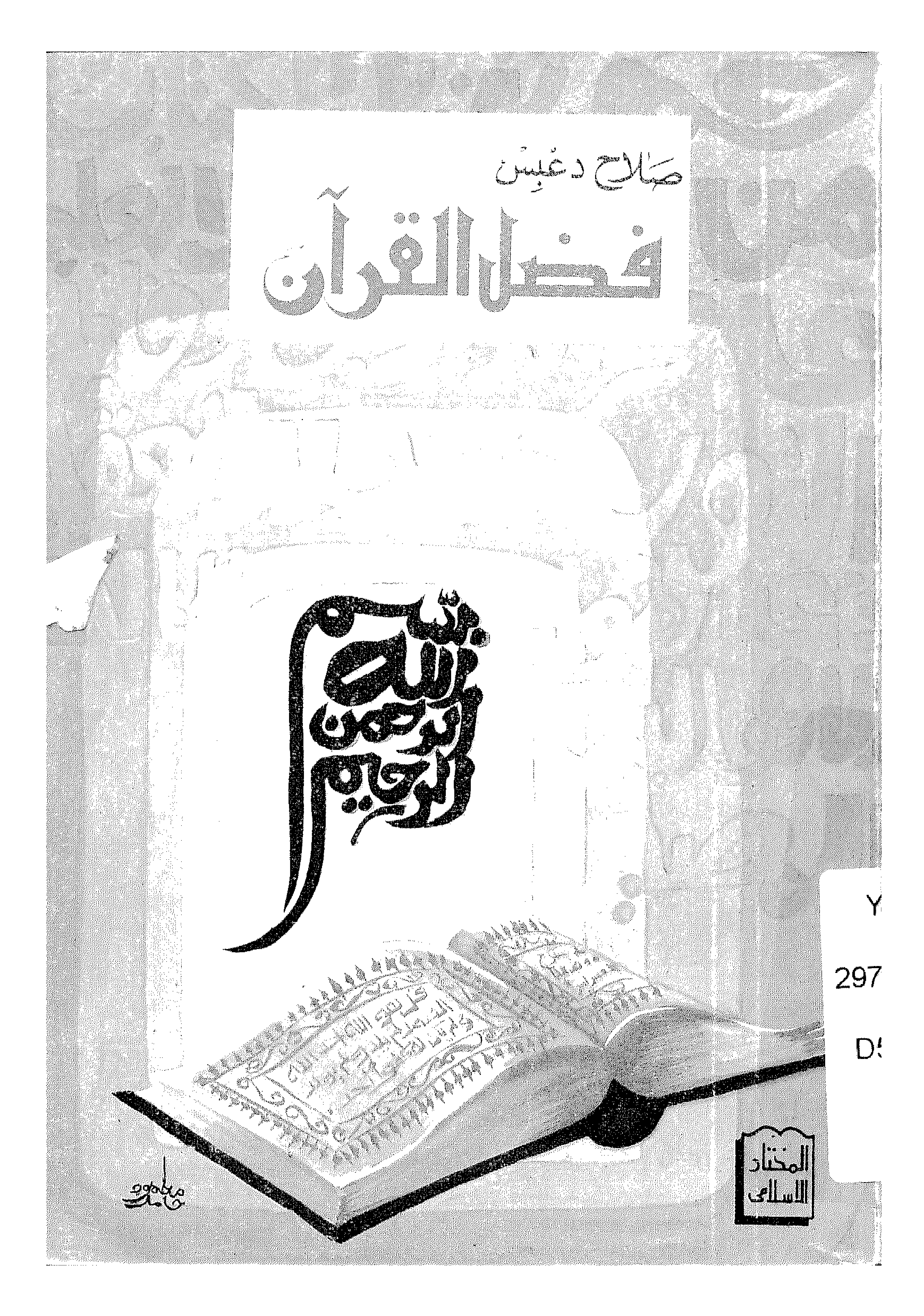

صلاح دعبس
فضل القرآن
بسم الله الرحمن الرحيم
المختار الإسلامي

فضل القرآن

تاريخ القرآن وتدوينه

وتربيته للفرد والأسرة والمجتمع

صلاح دعبس

المختار الاسلامي
للطبع والنشر والتوزيع
١٦ شارع كامل صدقي بالفجالة
القاهرة ت ٩١١٣٧١



تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ﴾

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا صمنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا وأسمع القلوب إن نادينا

وبعد : ففى إجلال واحترام وفى هيبة وتقديس وعلى وجل أقدم هذه الكلمات : حول القرآن الكريم تاريخه وتدوينه وأثره .

وقد قدمت الكثير من هذه الدراسات فى حديث الجمعة فى مسجدى الذى أقوم بأداء هذا الواجب فيه فأحسن الناس استقبالها وأصاخوا أسماعهم لموضوعها ولمست فيهم حرصا على تتبع القول فيها واستيفاء حديثها .

وكل حديث حول القرآن فإنه فيه هذا السر العجيب الذى يجعل الناس تصيخ السمع وتهفو بالقلب وتتطلع بالفؤاد تطلع العاشق الولهان وصدق الله العظيم : ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله ﴾ . الحشر .

وهذا سر لا نجد له تفسيرا إلا فى إطار القول الإلهى الكريم ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾[1] .

---

(١) سورة الحجر .

وتلك وسيلة من وسائل حفظ القرآن .. أن يكون له هذا الأثر فى المسلمين وفى غير المسلمين فى كل جيل بداية بالعصر الجاهلى حيث قال الوليد بن المغيرة فى آيات القرآن الكريم : « لقد سمعت من محمد كلاما ماهو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وإنه يعلو ولا يعلى عليه » .

إلى عصرنا هذا ــ عصر الكمبيوتر والإنسان الآلى ــ الذى شهد للقرآن على لسان فريق من علمائه يقول صاحب كتاب « القرآن والتوراة والإنجيل والعلم الحديث » د. موريس بوكاى العالم الفرنسى الذى أجرى دراسة للكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة يقول هذا العالم : « لقد تناولت القرآن منتبها بشكل خاص إلى الوصف الذى يعطيه عن حشد من الظاهرات الطبيعية ، وقد دفعنى ذلك إلى أن أتساءل : لو كان كاتب القرآن إنسانا : كيف استطاع فى القرن السابع الميلادى أن يكتب ما اتضح أنه يتفق اليوم مع أدق المعارف العلمية الحديثة ؟!

ولذا فمن المشروع تماما أن ينظر إلى القرآن على أنه« تعبير إلهى وأن تعطى له مكانة خاصة جدا حيث إن صحته أمر لا يمكن الشك فيه » .

ثم علينا أن نضيف إلى كل ذلك هؤلاء النفر من علماء الغرب الذين أعلنوا إسلامهم بعد دراسات وافية فى الديانات المختلفة من أمثال جارودى الفيلسوف والعالم الفرنسي الذي يجوب العالم الآن داعيا إلى الإسلام ومن أمثال العالم الانجليزى د آرثر إليسون » الذى سمى نفسه « عبد الله اليسون » وهو رئيس قسم الهندسة الكهربائية والألكترونية بجامعة سيتى البريطانية والذى أعلن إسلامه أمام شيخ الأزهر « جاد الحق على جاد الحق » أثناء تواجده بمصر فى مؤتمر « الإعجاز الطبى فى القرآن » وقد قال عنه الدكتور الأحمدى أبو النور وزير الأوقاف فى حفل إعلان إسلامه : « إن هذا اليوم يعد يوما تاريخيا يدخل

الإسلام فيه رجل يعد أمة كاملة بعد أن أكد نظرية التآخى بين الإسلام والعلم، وهو رجل ذو قيمة علمية عالية نرحب به أخا وشقيقا لنا جميعا فى الإسلام » .

ونحن لا نملك إزاء ذلك كله أقل من أن نثق فى أن القرآن قادم لا نشك فى ذلك قادم لإنقاذ البشرية وقيادتها من جديد يهتف له الجيل كله من أعماقه :

« الله غايتنا .. والرسول زعيمنا .. والقرآن دستورنا »

فاللهم اجعل القرآن ربيع قلوبنا ونور أبصارنا
واقبل اللهم هذا العمل خالصا لوجهك
وتقبل منا صلاة وسلاما على نبى القرآن
سيدنا محمد وآله ومن اتبع هداه إلى
أن يقوم الناس لرب العالمين

المؤلف
صلاح السيد دعبس

الفصل الأول

في تاريخ القرآن وتدوينه

الفصـل الأول

فى تاريخ القـرآن وتدوينه

عن تاريخ القرآن هذا الحديث ، والقرآن هو خطاب الله إلى الناس أودع فيه الله كل أسباب الهدى والرشاد وكل أسباب النجاح والتوفيق كتاب أنزله الله لتكون كل نفس مؤمنة نسخة حية من معانيه ، فيه الهداية إلى أسلم طريق في هذه الحياة ﴿ **إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم** ﴾[1] وفيه العافية من كل انحراف أو شقاء ﴿ **وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين** ﴾[2] بل إن الله جعل شرف هذه الأمة وفكرها فى القرآن ﴿ **لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم** ﴾[3] وجعل فيه روح هذه الحياة ونور أهلها وصدق الله العظيم ﴿ **وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ، ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا** ﴾[4] هذا القرآن أخبر عنه النبي صلوات الله وسلامه عليه أنه المنقذ من كل ضلالة وأنه المخرج فى كل فتنة .

يروى على رضى الله عنه خرج علينا رسول الله ﷺ فقال : « ستكون بعدى فتن . قلنا فما المخرج منها يا رسول الله ؟. قال : كتاب الله عز وجل فيه نبأ ما قبلكم وخبر مابعدكم وحكم مابينكم ، هو الفصل ليس بالهزل من تركه

(١، ٢) سورة الإسراء .　　(٣) سورة الأنبياء .　　(٤) سورة الشورى .

من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، هو حبل لله المتين والنور المبين والذكر الحكيم ، هو الذى لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا ، من قال به صدق ومن حكم به عدل ومن عمل به أجر ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم » .

* * *

هذا القرآن له تاريخ وتأريخه هو تاريخ الرشد والخير فوق هذه الأرض ، ومن حق هذا التاريخ أن يعرفه المسلمون وأن يعتزوا به كما يعرف الناس تاريخ أمتهم ويعتزون بتراث أوطانهم .

هذا الاسم الكريم :

« القرآن » اسم علم غير مشتق خاص بكلام الله المنزل على خاتم مرسليه صلوات الله وسلامه عليه فهو اسم خاص بهذا الكتاب الكريم كالتوراة اسم علم خاص بكلام الله المنزل على رسوله موسى عليه السلام وكالإنجيل اسم خاص بكلام الله المنزل على رسوله عيسى عليه السلام .

« حكى السيوطى فى كتابه « الاتقان » عن ابن شهاب قال : لما جمعوا القرآن كتبوه فى الورق ، فقال أبو بكر : التمسوا له اسما قال بعضهم نسميه « السفر » قالوا : ذلك تسميه اليهود فكرهوه وقال بعضهم : نسميه « إنجيلا » فكرهوه وقالوا ذلك تسمية النصارى وقال آخرون سمعنا أن الحبشة

يسمون « المصحف » فتقبلوا هذا الاسم واختاروا كلمة « المصحف » اسما للقرآن فكان أبو بكر أول من جمع كتاب الله وسماه « المصحف » .

هذا القرآن :

نزل منجما فى ثلاثة وعشرين عاما هى عمر بعثته ﷺ ، كان ينزل به الروح الأمين طيلة البعثة حتى لحق صلوات الله عليه بالرفيق الأعلى .

أما لماذا لم ينزل دفعة واحدة على قلب الرسول صلوات الله عليه فقد أجاب القرآن نفسه عن ذلك وهو يرد على تساؤل المشركين فى هذه القضية ﴿ **وقالوا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ، ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا** ﴾. « الفرقان ».

وهذه إجابة إلهية ترد على هذا التساؤل فمن أسباب نزول القرآن منجما فى بضع وعشرين سنة :

أولا :

تثبيت قلب النبى ﷺ فما أكثر ما كان يضيق بتكذيب المشركين وسخريتهم منه ، فكانت الآيات تنزل بردا وسلاما تزيح عن صدره أثر هذا التكذيب وتزيل عن نفسه مايلقى من سخرية المشركين وسوء أدبهم وقد أورد القرآن نموذجا لذلك .

﴿ إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ، وإذا مروا بهم يتغامزون وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين ، وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون ، وما أرسلوا عليهم حافظين ، فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون ، على الأرائك ينظرون هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون ﴾
« المطففين » .

ثانيا :

من أسباب نزول القرآن منجما أن يكون فى ذلك حجة على العرب فإنهم أرباب فصاحة وبلاغة والقرآن ينزل بين الحين والحين بالآيات والسور ويتحداهم أن يأتوا بمثله أو بسورة من مثله فعجزهم حجة عليهم .

ثالثا :

فى نزول القرآن منجما تعود للألسنة على تلاوته وذلك أسهل لحفظه وأيضا فى ذلك تعود لنفوس المسلمين على أوامر القرآن ونواهيه على حسب النوازل فلا يفاجئهم القرآن بأمر لايحتملون أداءه ولا ينهاهم عن فعل يتخيلون البعد عنه ، كما حدث فى تحريم الخمر وغيرها من العادات التى ورثوها واستدرجهم القرآن حتى ألفوا أمره ونهيه فاحسنوا استقبال ذلك فتحولوا إلى خلق القرآن فكان تحولهم شيئا طبيعيا على سنة التدرج كما ينمو الحى مُن باطنه يوما بعد يوم حتى يبلغ أشده .

* * *

كيف بـدأ الوحــى ؟!

على بعد أميال من مكة المكرمة وفى جبل من أعاليها كان محمد ﷺ يختلى فى غار حراء ، يفر من ضلال الناس وينفر من عبادة الأصنام التى غصت بها الكعبة ينشد صفاء النفس وطهارة القلب والضمير ، كان يعتكف فى هذا الغار أياما وليالي فى شهر رمضان من كل عام يتعبد على دين أبيه ابراهيم فإذا الملك يأتيه فى صورة رجل مهيب وقور يقطع عليه خلوته وعكوفه فى هذه الخلوة المباركة يتلو عليه أول كلمات السماء إليه ليخطو بها أول خطوات البعثة الإلهية إلى الناس ﴿ **اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم** ﴾ .

كانت هذه البداية سنة ٦١١ م وهى بداية كما ترى تدعو إلى القراءة والقراءة سبيل المعرفة وسبيل العلم وسبيل التقدم ، وتضع الآيات للقراءة وللمعرفة أصلا تقوم عليه وهدفا تسعى إليه .

لتكن قراءتك أيها المسلم باسم ربك وليكن تعليمك كله ومستقبلك كله بادئا باسم الله ومستمرا على مايرضى الله ومنتهيا إلى طاعة الله ، فما كان لله دام واتصل وما كان لغير الله انقطع وانفصل .

ثم هاجر صلوات الله عليه إلى المدينة سنة ٦٢٢ م وظل القرآن الكريم ينزل عليه فى المدينة بنفس الأسلوب الذى ينزل به في مكة . فنزل القرآن مكيا ومدنيا .

ويروى صاحب « الاتقان » أن القرآن المدنى باتفاق عشرون سورة ثم نقل أبياتا من الشعر خص بها القرآن المدنى فقال :

ياسائلى عن كتاب الله مجتهدا وعن ترنيما يتلى من السور
وكيف جاء بها المختار من مضر صلى الاله على المختار من مضر
وبعد هجرة خير الناس قد نزلت عشرون من سور القرآن فى عشر
فأربع من طوال السبع أولها وخامس الخمس في الأنفال ذي العبر
وتوبة الله إن عدت فسادسة وسورة النور والأحزاب ذى الذكر
وسورة لنبى الله لحكمة والفتح والحجرات الغُرّ فى غُرر
ثم الحديد ويتلوها مجادلة والحشر ثم امتحان الله للبشر
وسورة فضح الله النفاق بها وسورة الجمع تذكارا لمدكر
وللطلاق وللتحريم حكمهما والنصر والفتح تنبيها على العمر
هذا الذى اتفقت فيه الرواة له وقد تعارضت الأخبار فى أخر

هذا وقد نزل غالب القرآن مفرقا حسب الظروف ومما نزل جمعا سور :

الفاتحة والاخلاص والكوثر وتبت والنصر والمعوذتان وفى القرآن بعض ألفاظ غير عربية بلغت المائة ، وقد نقل صاحب الاتقان منها سبعا وعشرين لفظة منظومة في قوله :

السلسبيل وطه كورت بيع روم وطوبى وسجيل وكافور
والزنجبيل ومشكاة سرادق مع استبرق صلوات سندس طور
كذا قراطيس ربانيهم وغساق ثم دينار والقسطاس مشهور
كذا قسورة واليم ناشئة ويؤت كفلين مذكور ومسطور
له مقاليد فردوس بعد كذا فيما حكى ابن دريد منه تنور

وقد نزلت بعض الفاظه كذلك :

لأنه لايسد غيرها مسدّها ، ولأن محمدا صلوات الله وسلامه عليه رسول الله إلى الخلق جميعا وليس للعرب وحدهم فكأنه يتألفهم حين يأتى من كل لغة معروفة ببعض كلماتها تأليفا لأهلها وقربا منهم بالاقتراب من لغتهم أما عدد سور القرآن فهو «مائة وأربع وعشرة سورة» وقد سجل ذلك صاحب الاتقان فى كتابه حتى ذكر عدد آياته وكلماته وحروفه قال : أما عدد آياته فقد بلغ ٦٦١٦ آية ستة آلاف وستمائة وست عشرة آية وعدد كلماته بلغ ٧٧٩٣٤ كلمة : أى سبع وسبعون ألف كلمة وتسعمائة وأربع وثلاثون كلمة أما عدد حروفه فقد عدها ١٠٢٧٠٠٠ حرفا عد نصف القرآن

بالحرف « النون » فى « نكرا » من سورة الكهف والكاف من النصف الثانى وبالكلمات : الدال فقوله تعالى : ﴿ والجلود ﴾ من سورة الحج . وقوله : ﴿ ولهم مقامع من حديد ﴾ من النصف الثاني .

ونصفه بالآيات قوله سبحانه : ﴿ فألقي السحرة ﴾ من النصف الثاني ونصفه بعدد السور آخر سورة الحديد وسورة المجادلة من النصف الثاني .

أما آخر ما نزل : فكان في السنة الحادية عشرة للهجرة وقبل أن يلحق ﷺ بالرفيق الأعلى بأسابيع قليلة ، وفي حجة الوداع يرجح العلماء أن آخر ما نزل من آيات القرآن الكريم ، كان في هذه الحجة وأن ذلك هو قول الله عز وجل : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً** ﴾ المائدة .

ويروون أن النبي ﷺ عندما تلاها على أصحابه كان منهم من ظل يبكي حتى ليروي أن عمر بن الخطاب لقى ابن عباس فسأله فيم تبكي ؟ قال :

يا عمر ؛ ما تمت نعمة إلا نقصت وما أرى إلا أن أجل رسول الله ﷺ قد دنا .

قال عمر : والله ما فهمت منها إلا ذاك . وظاهر هذه الآية إكمال جميع الفرائض والأحكام ، أو أن الله أكمل لهم دينهم بإقرارهم بالبلد الحرام وأما آخر ما نزل من السور فهو سورة :

﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾

أما كيف وصل إلينا القرآن محفوظاً من التغيير معافى من التحريف والتبديل ؟ فذلك ما نريد أن نقول فيه :

فالثابت : أن أصحاب النبي ﷺ كانوا يكتبون ما يتلى عليهم بأمر منه ﷺ ومن غير أمر فقد كان ﷺ ينهى أن يكتب عنه غير القرآن حتى لا يختلط ما هو من القرآن بما ليس منه كان يقول : « لاتكتبوا عني غير القرآن ، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه » .

.. كتبوه على ما اتفق لهم من وسائل الكتابة على الحجارة وعلى سقف النخيل وعلى رقاع الجلد وعلى أكتاف العظم والأضلاع ، كل يكتب على ما تيسر له من ذلك ومنهم من جمعه ؛ كعلي ومعاذ وأبي وزيد وابن مسعود كانوا يكتبون ويعرضون ما كتبوا عليه ﷺ ليقرهم عليه ، وكان آخر من عرض عليه ﷺ زيد فقد كتب وعرض سنة وفاته ﷺ لقربه منه وكثرة ملازمته له وكان ﷺ يصلي ويقرأ بقراءته إلى أن لحق بربه ولذا فقد اختيرت قراءة زيد لنسخ المصحف فيما بعد ذلك .

* * *

جمعه في عهد أبي بكر :

.. في حروب الردة قتل زهاء ٧٠٠ من كبار الصحابة ومن حفاظ القرآن الكريم فجاء عمر إلى أبي بكر يقول : إن أصحاب النبي ﷺ يتهافتون على الموت تهافت الفراش على النار ، وهم حملة القرآن وحفاظه وأخشى إن فعلوا أن يضيع القرآن فلو جمعته ؟! .

قال الصديق : كيف أفعل ما لم يفعله رسول الله ﷺ ؟! .

ثم أرسل الصديق إلى زيد بن ثابت فدخل عليه وعنده عمر .

قال الصديق : يا زيد ؛ إن هذا ـــ يعني عمر ـــ قد دعاني إلى أمر فإن كنت معه وافقتكما .

يقول زيد : فقلت : نفعل ما لم يفعله رسول الله !! .

قال عمر : وما عليكما ؟! .

يقول زيد : فذهبنا ننظر فقلت : والله لا شيء ، فأمرني أبو بكر فكتبته في قطع الأدم والأكتاف وسقف النخل .

وبقي ما كتبه زيد هذا نسخة واحدة تتبع ما فيها من الرقاع ومن صدور الرجال ، ولم يكن يكتب إلا بشاهدين شاهد من حفظه هو وشاهد من حفظ غيره أئتمنه أبو بكر على ذلك باعتباره من كتاب الوحي للنبي ﷺ ثم لأنه صاحب الفرضة الأخيرة لقربه من النبي ﷺ فلما توفى أبو بكر سنة ١٣ هـ صارت هذه الأوراق إلى عمر ثم عند حفصة أم المؤمنين صدراً من ولاية عثمان .

* * *

جمعه في عهد عثمان :

وفي ولاية عثمان رضي الله عنه تفرق القراء في الأمصار وأخذ أهل كل مصر عن رجل من القراء ، وكانت القراءات مختلفة باختلاف الأحرف التي نزل بها القرآن ، فقد نزل كما قال ﷺ علي سبعة أحرف وهي سبع قراءات على لحن قبائل سبع كانت تجاور قريشاً في السكنى حولي البيت ، نزل بها القرآن حتى تستطيع هذه القبائل فهمه وحتى تجد آياته الكريمة سبيلاً إلى قلوبهم وعقولهم .

كان ذلك مع علم الناس بإسناد هذه القراءات كلها إلى النبي ﷺ أمراً مقبولاً ، لكن المتأخرين الذين لم يباشروا النبي ﷺ ولم يسمعوا منه ، قد يترك ذلك الشك فيهم ، وقد يرى بعضهم أن قراءته خير من قراءة أخيه ، وليس وراء ذلك إلا الجدل ثم التأثيم والكفر فتكون فتنة ، وقد بدأت الفتنة فعلاً ، ففي غزوة أرمنية وأذربيجان كان حذيفة بن اليمان مع الغزاة فرأى خلافاً كثيراً بسبب اختلاف القراءات ، ففزع إلى عثمان أمير المؤمنين فعظم الأمر على عثمان ، وعرف أن الخلاف في قراءة كتاب الله مدرجة إلى الخلاف فيما نزل به القرآن وإنما هو اجتراء واحد يوشك أن يكون مساغ كل تبديل وتحريف ، لكن الله قد تعهد بحفظ هذا الكتاب :

﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ الحجر

ولذا فإن أمير المؤمنين عثمان لما وجد اختلاف الناس في القراءات قال : « أعندي تختلفون ، فمن نأى عني كان أشد خلافاً ، يا معشر أصحاب محمد اجتمعوا فاكتبوا للناس إماماً » .

... أجمع أمير المؤمنين عثمان وأجمع الصحابة معه على جمع الناس على مصحف واحد بأن ينتسخوا الصحف الأولى التى كتبت فى عهد أبى بكر وأن يجمعوا الناس عليها ، أرسل عثمان إلى زيد بن ثابت وإلى نفر من الحفاظ وأمرهم أن ينسخوا القرآن ، وقال لهم : إذا اختلفتم أنتم وزيد فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما نزل القرآن بلسان قريش . يقول زيد : فلما فرغت عرضته فلم أجد هاتين الآيتين :

﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ، فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ﴾ .

فاستعرضت المهاجرين أسألهم ، ثم الأنصار أسألهم فوجدتها عند رجل يدعى « خزيمة » فأثبتها فى آخر براءة . فلما عرضته لم أجد فيه شيئاً ، فأرسل عثمان إلى حفصة يسألها فعرضته عليها فلم أجد شيئاً فحمد الله ورد الصحيفة إلى حفصة ثم أمر بنسخ عدة نسخ وأرسل إلى كل مصر مصحفاً وأمرهم بحرق ما عداه !! .

أرسل إلى مكة مصحفاً وإلى الشام وإلى اليمن وإلى الكوفة وإلى البصرة وإلى المدينة وبعث إلى أمراء هذه المدن أن يحرقوا ماعدا هذا المصحف وأن يلتزموا بما فيه حتى لا يختلفوا ولم يجعل فى ذلك رخصة لأحد ، وأمير المؤمنين بهذا إنما حصن القرآن وأحكم الأسوار حوله ومنع الزمن أن يتطرق إليه بشيء من التحريف ، وما ذلك إلا وسيلة من وسائل حفظ القرآن الذي أخبرنا به الله فى قوله :

﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾

* * *

كان جمع أمير المؤمنين عثمان سنة ٢٥ هـ فلما ماتت حفصة أرسل عثمان إلى عبد الله بن عمر يسأله الصحيفة فمحا ما فيها محواً واجتمع المسلمون على هذا المصحف الواحد في شتى بقاع الأرض وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها والحمد لله رب العالمين .

ترتيبه :

هذا الترتيب الموجود الآن في المصحف بين سوره لم يكن معروفاً من قبل ، هذا ترتيب الصحابة واجتهادهم بدليل أن المصاحف اختلفت في هذا الترتيب فمن الصحابة من رتب السورة في مصحفه حسب النزول كمصحف علي الذي رتب السور حسب نزولها فالأول على هذا النحو :

سورة اقرأ ثم المدثر ثم ن ثم المزمل وهكذا .

* * *

أما ترتيب الآيات في كل سورة فذلك أمر توقيفي عن الذي لا ينطق عن الهوى ، فالمروي أنه ﷺ كان إذا نزلت الآية أمر بعض كتاب وحيه فقال لهم : « اكتبوا هذه الآية في الموضع الذي يذكر فيه كذا من سورة كذا » .

.. يروى صاحب الإتقان نقلاً عما أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي عن ابن عباس رضي الله عنهم أجمعين قال :

قلت لعثمان : ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا سطر « بسم الله الرحمن الرحيم » ووضعتموها في السبع الطوال ؟!

فقال عثمان : كان ﷺ تنزل عليه السورة ذات العدد فكان إذا نزل عليه

الشيء دعا بعض كتاب وحيه فيقول ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة وكانت براءة من آخر ما نزل من القرآن وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر « بسم الله الرحمن الرحيم » ووضعتها في السبع الطوال .

وفي المستدرك عن ابن عباس : سألت علياً : لم لم تكتب في براءة « بسم الله الرحمن الرحيم » ؟ .

قال : لأن « بسم الله الرحمن الرحيم » أمان وبراءة نزلت بالسيف .

والذين يعتبرونهما سورة واحدة يعدون القرآن ١١٣ سورة مائة وثلاثة عشرة سورة بجعل الأنفال وبراءة سورة واحدة لكن ذلك مردود بتسمية النبي ﷺ كلا منهما على حدة وعلى هذا فسور القرآن كما ذكرنا مائة وأربع عشرة سورة .

* * *

لكن تقسيم القرآن إلى ثلاثين جزءاً وكل جزء إلى ثمانية أرباع ، فإن ذلك كان في آخر خلافة الوليد بن عبد الملك وليس في ذلك إلا تسهيل الحفظ وتحديد القراءة للحفاظ والقارئين .

.. وقد أجمع الصحابة على أن ما بين دفتي المصحف هو الذي تلقوه عنه ﷺ لم يأته الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأن ألفاظه متواترة إجماعاً لا يتمارى فيه الرواة ولا يشك فيه المريبون . ذلك أن القرآن أصل هذا الدين ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ .

أدب التلاوة :

في بداية حديثي عن أدب التلاوة أسوق هذه المجموعة الطيبة من الأحاديث الشريفة التي رددتها كتب السنة فهى تضع القرآن في موضعه تقديراً وإجلالاً وتضع القارئ على أعتاب الانتفاع بالقرآن والتأثر في تلاوته وذلك ما نبغي .

قال رسول الله ﷺ : « من قرأ القرآن فرأى أن أحداً أوتي خيراً مما أوتي فقد استصغر ما عظم الله تعالى » .

.. وروى صاحب الإحياء عن الإمام الممتحن ابن حنبل : « رأيت الله عز وجل في المنام ، فقلت : يارب ما أفضل ما يتقرب به المتقربون إليك !؟ قال : بكلامي يا أحمد ، قلت : يا رب بفهم أو بغير فهم ؟ قال : بفهم وبغير فهم » .

وفي حديث عائشة : « البيت الذي يقرأ فيه القرآن يتراءي لأهل السماء ، كما تتراءي النجوم لأهل الأرض » .

كيف تقرأ ؟

وخير قراءة للقرآن ما ورد في الحديث الذي أخرجه الشيخان عن عبد الله بن عمرو قال : قال لى رسول الله ﷺ : « اقرأ القرآن في شهر ، قلت : إنى أجد قوة ، قال : اقرأه فى عشرة ، قلت : إنى أجد قوة ، قال : اقرأه فى سبع ولا تزد » .

وروي عن الإمام أبي حنيفة أنه قال : « من قرأ فى كل سنة مرتين فقد أدى حقه » .

..ولكن نسيانه كبيرة والالتزام بأمره واجتناب نهيه واجب لحديث أبي

داود عن النبي ﷺ : « عرضت على ذنوب أمتي ، فلم أر ذنباً أعظم من سورة من سور القرآن أو آية أوتيها الرجل ثم نسيها » .

وقوله ﷺ : « ما آمن بالقرآن من استحل محارمه » .

وللتلاوة آداب :

أولها الوضوء قبل القراءة والقراءة في مكان نظيف واستقبال القبلة ذلك أن تلاوته عبادة وقد قال الله عز وجل : ﴿ **إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون** ﴾ الواقعة .

ومن آداب التلاوة : ترتيل القراءة بمعنى تجويد التلاوة وإحسان النطق بإخراج الحروف من مخارجها ، ذلك أعون على حسن التدبر والتفكير والتقدير لما تقرأ فقد نعتت أم سلمة رضي الله عنها رسول الله ﷺ فإذا هي تنعت قراءة مفسرة محدودة حرفاً حرفاً .

..والبكاء مستحب مع القراءة ، قال ﷺ : « اتلوا القرآن فابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا » .

وهذا البكاء أو التباكي إنما يكون نتيجة التدبر في معاني الآيات التي يقرؤها القارئ ونتيجة التأمل لما فيه من تهديد ووعيد ومن عهود ومواثيق .

.. ثم على القارئ أن يراعي حق الآيات ، فإذا مر بآية تسبيح سبح وإذا مر بآية دعاء دعا أو استغفر وإذا مر بآية سجدة سجد ، وإذا سمعها من غيره سجد وفي القرآن : أربع عشرة سجدة في سورة : الأعراف والرعد والنحل والإسراء ومريم وفي الحج سجدتان وفي الفرقان والنمل والم تنزيل وإذا السماء انشقت واقرأ .. وعلى القارئ أو السامع أن يدعو في كل سجدة بما يليق بالآية التى يقرؤها .

وقال حذيفة : « صليت مع رسول الله ﷺ فابتدأ سورة البقرة ، فما كان يمر بآية رحمة إلا استرحم ولا بآية عذاب إلا استعاذ ولا بآية تنزيه إلا سبح » .

..ومن الآداب أن يسمع نفسه في تلاوته ، أما الجهر بحيث يسمع غيره فهذا فضل إذا لم يكن فيه تشويش على مصلٍ ولا تعطيل لمؤد واجباً . فالقارئ للقرآن عليه أن يختار ما يناسب مجلسه وموقفه .

وتحسين الصوت : في قراءة القرآن مطلوب ، قال ﷺ : « ما أذن الله لشيء إذنه لحسن الصوت بالقرآن » .

وفي كتب السنة أن الرسول ﷺ استمع إلى قراءة أبي موسى فقال : لقد أوتى هذا من مزامير آل داود ، فبلغ ذلك أبا موسى فقال : يا رسول الله ، لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيراً » .

..ومن أدب التلاوة أن يفهم القارئ علو الكلام وعظمة المتكلم وأن يتجرد لقراءة القرآن من كل مشغلة ، وأن يقدر أنه المقصود بكل أمر يجيئ به القرآن وبكل نهى ، فذلك أعون على الفهم وأقرب إلى التأثر وحسن التدبر .

قال رسول الله ﷺ : « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى الملكوت » .

ولعل مما يناسب هذا المقام ما قرأناه عن فيلسوف باكستان المسلم « محمد إقبال » قال : أشد نصيحة أثرت في حياتي نصيحة قالها لي أبي : « يا بني اقرأ القرآن كأنه ينزل عليك أنت » .

.. وقرأنا لأحد الصالحين يقول : قرأت القرآن على شيخ لي ثم رجعت

لأقرأ عليه ثانية فانتهرني ، وقال : جعلت القراءة علي عملاً ! اذهب فاقرأ على ربك فانظر بماذا يأمرك وعم ينهاك !!

* * *

هكذا يكون أدب التلاوة وحسنها ، عمل جامع بين شغل : اللسان والعقل والقلب :

فاللسان يرتل

والعقل يفهم

والقلب يتعظ

ثم من أدب التلاوة أن يدعو القارئ بهذا الدعاء النبوي الكريم إذا ختم القرآن : « اللهم ارحمني بالقرآن واجعله لي إماماً ونوراً وهدى ورحمة ، اللهم ذكرني منه ما نسيت وعلمني منه ما جهلت وارزقني تلاوته آناء الليل وأطراف النهار واجعله لي حجة يارب العالمين ، اللهم آمين .

أثر القرآن في لغة العرب ووحدتهم :

﴿ ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون قرآناً عربياً غير ذي عوج لعلهم يتقون ﴾ الزمر .

* * *

والقرآن الكريم له أثره في لغة العرب وفي وحدتهم واجتماع أمرهم فلولا القرآن وأسراره البيانية ما اجتمع العرب على لغة ، ولو لم يجتمعوا لتبدلت

لغاتهم بالاختلاط الذي وقع ولم يكن منه بد ، ولو حدث ذلك لكان مصير هذه اللغة إلى الفناء لا محالة .

.. وهذا معنى من معاني الإعجاز ، فإن تأثير القرآن وأسلوبه البياني هو الذي اقتضى ما أحدثه العلماء بعد ذلك من تتبع العلوم والمعارف التي توصل إلى سلامة أدائه وحسن فهمه ، فعلم النحو والصرف وعلوم البلاغة كلها لم تكن لتقوم لولا القرآن ولولا حرص المسلمين على فهمه وإدراك معانيه في كل مكان وزمان .

.. ولقد كان من معاني الإعجاز القرآني أيضاً أنه جمع هؤلاء العرب الذين قطعوا الدهر بالتقاطع والتدابر . جمعهم فألف بين قلوبهم وساوى بين نفوسهم وقضى على العصبية في مجتمعهم .

* * *

ولقد تحدى القرآن العرب فأعجزهم وطالبهم أن يأتوا بسورة من مثله فكان عجزهم دليلاً على إعجازه وصدق الله العظيم : ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا** ﴾ الإسراء .

* * *

.. على أن التاريخ لم يخل من أقوام زعموا أنهم عارضوا القرآن الكريم ، فمنهم من ادعى النبوة وجعل ما يلقيه قرآناً كيلا تكون نبوته بلا وحي يتلو منه على أتباعه وهم أتباع عصبية قبلية وليسوا أتباع دين وعقيدة من هؤلاء مسيلمة الكذاب والأسود العنسي وطليحة وسجاح ، وقد رووا أن طليحة جاء إلى اليمامة

ــ مقر مسيلمة الكذاب ــ فسأل : أين مسيلمة ؟

قالوا : من ؟ رسول الله ! قال : لا حتى أراه .

فلما جاءه سأله : أنت مسيلمة ؟ قال : نعم . قال : من يأتيك ؟

قال : رحمن !! قال : أفي نور أم في ظلمة ؟ قال : في ظلمة !!

قال طليحة : أشهد أنك كاذب وأن محمداً صادق ، ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر !!!

وقد زعم مسيلمة أن قرآناً يوحى إليه ، يأتيه به ملك يسمى « رحمن » غير أن كل ما جاء به ضرب من الحماقة وأسلوب غث يجري على سجع الكهان دون معنى يصيبه . ومن ذلك محاولته أن يعارض سورة الفيل القرآنية القليلة في مبناها الكبيرة في معناها . قال في ذلك :

« الفيل ما الفيل ؟ وما أدراك ما الفيل ، له ذنب وبيل وخرطوم طويل » !!

وذكر الجاحظ في كتابه « الحيوان » عند الحديث عن الضفدع قال : ولا أدري ما هيج مسيلمة على ذكرها ، ثم ذكر قوله فيها :

« يا ضفدع يا بنت ضفدعين ، نقي ما تنقين ، نصفك في الماء ونصفك في الطين ، لا الماء تكدرين ، ولا الشارب تمنعين » !!

هكذا كل من حاول أن يعارض القرآن أعجزه القرآن فكان كلامه كما رأيت واهيا سخيفا لا ينهض ولا يتماسك .

* * *

.. ولما يئس المشركون من معارضة القرآن ، دفعهم عجزهم إلى أن يحاولوا صرف الناس عنه بغوغائية وتهريج فكانوا يقولون : ﴿ **لا تسمعوا لهذا القرآن ، والغوا فيه لعلكم تغلبون** ﴾ .

لكن القرآن غلبهم ، فضاعوا هم وبقي القرآن : ﴿ **وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته** ﴾ الأنعام .

* * *

ويكفي القرآن خلوداً وثباتاً أنه كان أداة تأليف العرب على تفرقهم والزحف بهم على قلتهم وضعف وسائلهم ، حتى اكتسحوا دولة الفرس والروم ، وهما يومئذ كل الدنيا القديمة اكتسحوا هذه الديار وشعارهم :

« الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام » .

* * *

ولولا القرآن لما أدرك العرب في أمورهم دركاً ، ولفاتهم من ذلك الكثير وصدق الله العظيم : ﴿ **لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم** ﴾ الأنبياء .

فاللهم اجعل القرآن ربيع قلوبنا ونور بصائرنا وأبصارنا .

حقيقة إعجاز القرآن :

والقرآن الكريم معجز لكل البشر في كل أجيال هذه الحياة ، هو معجز بكل ما يفهم من لفظ الإعجاز على إطلاقه :

فهو معجز في تاريخه دون سائر الكتب

وهو معجز في أثره الإنساني وتأثيره
وهو معجز في حقائقه التي لا يزيدها الزمن إلا ثباتاً ورسوخاً
هو معجز للخلق جميعاً :

في أسلوبه ونظمه وفي علومه وحكمه وفي تأثيره وهدايته وفي كشفه الحجب عن الغيوب الماضية والمستقبلة .

﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾ الإسراء .

﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا ﴾ النساء .

الفصـــل الثانـــي

القرآن :

تربيـــة للفـــرد

نحن على يقين أن للإسلام منهجاً في التربية متكاملاً يشمل النفس الإنسانية كلها ويشمل الحياة البشرية بكل ما فيها لا يترك صغيرة ولا كبيرة ، منهجاً يربي الأمة المسلمة التي أراد الله لها أن تكون كما قال القرآن الكريم ﴿ **خير أمة أخرجت للناس** ﴾ هذا المنهج الذي وضع القرآن خطوطه الأولى والذي قدمت السنة نموذجاً بيناً له هو المنهج الوحيد الذي يعمل على خلق الإنسان الصالح الذي يتعامل بإنسانيته مع القريب والبعيد ومع العدو والصديق .

.. هذا المنهج يربي الإنسان الذي يحمل معه دائماً معالم إنسانية في كل ظروفه وأحواله .

.. ذلك أن الإسلام دين الفطرة فهو حين يعالج الإنسان وحين يربيه يعالج فطرته مكتملة يعالج كل عواطفه ومشاعره ويهيئ له كل حاجاته :

يعالج جسده
ويعالج روحه
ويعالج عقله

يعالج حياته المادية والروحية والعقلية .

.. يوفر له كل حاجات الجسد ومطالبه بالقدر المناسب المضبوط .

﴿ **وكلوا واشربوا ولا تسرفوا** ﴾ الأعراف

.. وينمي فيه كل معارف عقله في حدود إمكانات العقل ومجالاته وقدراته « تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا » (حديث شريف) .

.. ويغذي كذلك كل أشواق الروح وتطلعاتها دون رهبنة ولا تبتل .

ذلك أن الإسلام لا يرى الإنسان مادة فقط فيهتم بحاجات الجسد المادية لا يقول الإسلام أبداً ما يقوله الماديون :

إنما الدنيا طعام وشراب ومنـــام
فإذا فاتك هذا فعلى الدنيا السلام

لا يقول الإسلام ذلك أبداً ولكنه في نفس الوقت وفي جانب الروح أيضاً لا يقول ما يقوله غلاة المتصوفة :

في دون حبك ياربّي غسلت روحـــي
وحطمت جسدي دار التـــــراب

تحطيم الجسد لحساب الروح انحراف بالإنسان خطير ، وضياع الروح لحساب الجسد انحراف أيضاً وخطير .

وإنما الإسلام يريد الوسطية التي تحفظ على الإنسان دنياه ولا تنسيه آخرته :

﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ القصص .

﴿ ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ﴾ البقرة .

لا انفصال في الإسلام بين جوانب الإنسان المادية والعقلية والروحية الإنسان هو هذا المزيج :

جسد له حقوقه
وعقل له مجالاته
وروح لها أشواقها

والتوازن بين كل هذه الجوانب هو مهمة التربية الإسلامية وكل ما يصيب

المجتمعات من شر ومن خيبة أمل ومن قلق واضطراب هو نتيجة حتمية لفقدان هذا التوازن بين طاقات الإنسان .

وفساد الإنسان وانحرافه وفقدانه لهذا التوازن لا يصيبه وحده وإنما يصيب غيره من الناس وهذا أمر طبيعي فالإنسان في مجتمعه وحده وإنما يصيب غيره من الناس وهذا أمر طبيعي فالإنسان في مجتمعه لبنة في بنائه ، وحين تفسد اللبنات ينهار المجتمع كله على من فيه وصدق الله العظيم

﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ الأنفال

ثمرة هذه التربية :

هذه التربية التي يريدها الإسلام هى التي تخلق الإنسان الصالح الذي يجمع كل صفات الصلاح والنجاح فهو إنسان عابد تقي ونعني بالعبادة هنا الاتصال الكامل بالله ومراقبته وتقواه في كل نشاطات الإنسان في الحياة .

.. فهو إنسان تظهر على وجهه ملامح الأدب والتقوى :

﴿ سيماهم في وجوههم من أثر السجود ﴾ الفتح .

.. ومع تقواه لله فهو شديد في الحق قوي على أعدائه :

﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾(١) .

وهو مع شدته وقوته لا يبغي إلا الخير فإذا زال الشر بكلمة طيبة تسلح بها .

﴿ ادفع بالتي هى أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴾ فصلت .

---

(١) سورة الفتح .

.. وهو لا يستعلي على الناس في السراء كما لا يضعف في الضراء .

﴿ ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً ﴾ لقمان .

﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ آل عمران .

.. وهو لا يتطلع إلى ما ليس له :

﴿ ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى ﴾ طه .

وهو إنسان مستعل في وجه شهوته فلا تستعبده لكنه يسيطر عليها بإيمانه مهما أحس بلذعها في أعصابه .

﴿ وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله ﴾ النور .

.. وهو مستعل في وجه كل القيم الزائفة التي تغرى ولا تغني والتي تخدع ولكنها لا تخفض ولا ترفع .

﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا ﴾[1] .

.. وهو مع استعلاء بالإيمان يدفعه الإيمان إلى التواضع والأدب مع الناس .

﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾ الفرقان .

---

(٢) سورة الكهف .

..وهو على كل ذلك إنساني النزعة إيماني العواطف والميول يفيض قلبه دائماً بالعطف على بني الإنسان بكل ما فيهم من ضعف بشري وبكل ما فيهم من طمع ومن جشع وغرور هو يسارع إلى مرضاة الله .

﴿ **و سارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس** ﴾ آل عمران .

.. هو إنسان محب للخير لكل الناس.ذلك مناط الإيمان :

قال ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

.. هو إنسان اجتماعي يخالط مجتمعه ويصبر على لأوائه واضعاً نصب عينه قول رسول الله ﷺ :

« الرجل الذي يخالط الناس ويصبر على آذاهم خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على آذاهم » .

.. هو شخص نظيف عفيف :

نظيف فى ثيابه : ﴿ **وثيابك فطهر والرجز فاهجر** ﴾ المدثر .

نظيف في سلوكه وفي علاقاته : ﴿ **إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها** ﴾[1] نظيف في علاقاته بالله ﴿ **قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين** .. ﴾ المؤمنون .

هذا هو الشخص الذي يربيه الإسلام .

---

(٢) سورة النساء .

وسوف نعرض في هذا الفصل لبعض معالم تربية الإسلام وتكوينه للفرد وللأسرة وللمجتمع كله .

* * *

القرآن ينظم حياة الفرد :

انظر كيف ينظم القرآن حياة الفرد من مولده حتى مماته :

نظم القرآن حياة الفرد وأوضح حقوقه وبين واجباته وطريقة تربيته والتعامل معه منذ هو جنين في بطن أمه .

وهذه حقوق الجنين :

أوجب القرآن للحمل في بطن أمه حقوقاً :

أولها : أن تحْترم الأم حملها فتحافظ على وجوده وتعالن الناس به .

قال الله عز وجل : ﴿ **ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر** ﴾ البقرة .

.. وفي خلافة عمر وجب الحد على امرأة ـــ حامل ـــ فسأل علياً في ذلك فقال علي : « إذا كان الله قد جعل لك عليها سبيلاً ، فليس لك على حملها من سبل ـــ اتركها حتى تلد ثم أقم عليها الحد » ويومها قال عمر : « لولا علي لهلك عمر » .

.. فإذا ولد الجنين فهو إنسان له حقوقه التي تحفظ عليه حياته ، وأول هذه الحقوق الرضاعة من الأم والرعاية من الأب .

الأم مجبرة على أن ترضع وليدها حتى ولو طلقت من أبيه ، ليس لها أن تتخلى عن حضانته ورعايته وخصوصاً عندما لا يقبل الرضاعة من سواها . قال الله عز وجل : ﴿ **والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ، وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف** ﴾ البقرة .

..هذه حقوق الرعاية المادية : أوضحها القرآن ، وله مع ذلك حقوق أدبية أقلها أن يحصن الأب رعايته وأن يقوم بحقوقه منذ يولد .

.. فعليه أن يختار له اسماً حسناً يعرف به بين الناس وأن يتعهد توجيهه ونشأته .

قال الله عز وجل : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة** ﴾ التحريم .

..ويشب الطفل ــ يكبر ــ فتكبر حقوقه معه يكبر معه توجيهه فيتعلم كيف يعامل الناس في المجتمع وكيف تقوم علاقاته .

قال الله عز وجل : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات : من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم** ﴾ .

﴿ **وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم** ﴾ النور .

..وفي كتب السنة تبيان واضح لأسلوب تربية الصغير والطريقة المثلى لمعاملته . يقول الرسول الكريم : « علموا أولادكم وأحسنوا أدبهم فإنهم هدية الله إليكم » .

.. والتربية في أدب السنة تبدأ منذ نعومة الأظفار بالنسبة للطفل تلطفاً ومداعبةً ، فقد ثبت أن النبي ﷺ كان يلاعب أطفاله ويداعبهم ودخل عليه أعرابي هو الأقرع بن حابس فوجد الحسن والحسين يركبان على ظهره ﷺ وهو يلاطفهم ويقبلهم فكأن الرجل عجب لذلك فقال :

تلاعب الصبيان يا رسول الله !! قال ﷺ : « وكيف أنت مع أهلك وولدك ؟! » قال الرجل : أنا إذا دخلت البيت سكت الناطق ووقف القاعد . قال ﷺ : « وما أملك أن نزع الله الرحمة من قلبك !! » .

.. وفي كتب السنة أيضاً أنه ﷺ كان يصلي فأطال السجود فلما سألوه في ذلك قال : « إن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله » !! .

.. وثبت أيضاً أنه عجل في صلاته مرة من أجل بكاء طفل سمعه يبكي فخشى أن تشغل أمه ببكائه فعجل الصلاة !! .

.. وكان ﷺ يؤاكل الصبيان ويعلمهم كيف يتناولون الطعام . قال ﷺ لغلام معه على مأدبة الطعام :

« يا غلام سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك » .

.. ويرسخ ﷺ العقيدة الإيمانية في قلوب الصغار يصلهم بربهم يعرفهم حقوقه ويوجههم إلى الالتزام بأدائها منذ الصغر .

يقول : « علموا أولادكم الصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر » .

وبين للصغار أن رعاية الله مرتبطة بطاعة العبد لله . يقول ابن عباس رضي الله عنهما : « كنت رديف النبي ﷺ وأنا غلام صغير فقال لي : يا غلام ؛ إني أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة كلها انسها وجنها ، لو اجتمعت على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله

عليك ، ولو اجتمعت على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، رفعت الأقلام وطويت الصحف » .

.. ومن حسن التربية في الإسلام للصغار العدل — من الأب — فيما بينهم فلا يحابي ولداً على حساب أخيه . قال ﷺ : « إن الله يحب أن تعدلوا بين أولادكم حتى في القبلة » .

.. وفي عهد عمر شكا رجل إليه عقوق ابنه ، وأحضر عمر الابن ليؤدبه ، فإذا الابن يسأل عمر : يا أمير المؤمنين أليس لي على أبي حقوق ؟ قال عمر : بلى ، لك عليه أن يختار أمك وأن يحسن اسمك وأن يعلمك الكتاب . قال الابن : فانظر يا أمير المؤمنين : أما أمي فهي زنجية كانت أمة لمجوسي ، وأما اسمي فقد سماني : جعراناً . وأما الكتاب فلم يعلمني منه حرفاً واحداً .

قال عمر للرجل : « اذهب فقد عققت ابنك قبل أن يعقك وأسأت إليه قبل أن يسيء إليك !! » .

الفصـــل الثالـــث

تربيـــة الإســـلام للأســـرة

القرآن يربي الأسرة :

تحدثنا عن القرآن وهو يربي الفرد ويرعاه ويحسن توجيهه وتعليمه لكي يكون عضواً صالحاً يستطيع أن يكون الأسرة الصالحة التي يصلح المجتمع كله بصلاحها ، فالأسرة أساساً هي المجتمع مصغراً .

.. قوة الأسرة قوة للمجتمع وطهارة الأسرة طهارة للمجتمع كله في وجه من وجوهه ومن هنا يوفر الإسلام للأسرة كل أسباب الاستقرار والطهر ويجعلها مقراً لأسمى العواطف وأنبل المشاعر .

قال الله عز وجل : ﴿ **خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة** ﴾ الروم .

.. هذه المشاعر الطيبة مشاعر الود والرحمة والتضحية والإيثار والعطاء والإخلاص كل هذه المشاعر تنبت في الأسرة أولاً ثم تفيض منها على المجتمع كله .

.. ولهذا فإن الإسلام يولي الأسرة اهتماماً كبيراً ، ويؤكد لها من الحقوق ما يضمن بقاءها قوية صالحة .

الزواج أصل الأسرة :

ورباط المرأة بالرجل عن طريق الزواج هو الأصل في تكوين الأسرة ، والقرآن الكريم والسنة المطهرة يعطيان عقد الزواج أهمية خاصة لا يعطيانها لأي عقد بين طرفين :

ــ ففي القرآن الكريم دعوة إلى الزواج وتشجيع عليه . قال تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفسٍ واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء** ﴾ النساء

وقال سبحانه : ﴿ **وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً** ﴾ الفرقان .

ـــ وفي السنة أيضاً هذا الحث على الزواج « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » .

وفي السنة أيضاً هذا القول الكريم لرسول الله ﷺ .

« ألا أخبركم بخير ما يكنز الرجل ؟ المرأة الصالحة ، إذا أمرها أطاعته وإذا غاب عنها حفظته وإذا نظر إليها سرته » .

ـــ والقرآن الكريم يعطي الزواج اهتماماً خاصاً حتى في اختيار اسمه فهو يسمي عقد الزواج « الميثاق الغليظ » .

ـــ يقول القرآن الكريم : ﴿ **وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً ، أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبينا !! وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظا** ﴾ النساء .

ـــ والسنة المطهرة تولى عقد الزواج أيضاً هذه الأهمية وتطالب بالإعلان عنه والإشهاد عليه وتدعو إلى إظهار الفرح والسعادة في أيامه ؛ قال ﷺ : « أعلنوا هذا النكاح واجعلوه في المساجد واضربوا عليه بالدف » .

ـــ وحسن اختيار كل طرف لصاحبه أمر يطالب به الإسلام قبل الإقدام على عقد الزواج . قال ﷺ : « تخيروا لنطفكم فإن العرق نزاع » ويحذر ﷺ من التسرع في اختيار الزوج . يقول : « إياكم وخضراء الدمن قالوا : وما خضراء الدمن يا رسول الله ؟ قال : المرأة الحسناء في المنبت السوء » .

ويضع الرسول الكريم هذه القواعد ويطالب مراعاتها عن اختيار شريك

الحياة . يقول ﷺ : « لا تزوجوا النساء لحسنهن ، فعسى حسنهن أن يرديهن ، ولا تزوجوهن لأموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن ، ولكن تزوجوهن على الدين ، ولأمة سوداء ذات دين أفضل » .

ــ وعن الرجل يقول ﷺ : « إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه ، إن لا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير » .

ــ وذات يوم سأل رجل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : من أزوج ابنتي ؟ قال له ابن عباس : زوجها من رجل يتقي الله ، إن أحبها أكرمها وإن كرهها لم يظلمها » .

.. ذلك الاهتمام بالاختيار من الإسلام لأن الزواج ليس نزوة عابرة وقتية يقضيها الرجل حيث أعجب وأحب ، إنما الزواج معاشرة ومشاركة ومعايشة بين اثنين اختلط كل منهما بصاحبه حتى أصبح له زوجاً .

وهذه النظرة تستدعي الدقة عند الاختيار بعيداً عن المظاهر التي تغري ولا تغني . قال الرسول الكريم : « من تزوج امرأة لمالها لم يزده الله إلا فقراً ، ومن تزوج امرأة لعزها لم يزده الله إلا ذلاً ، ومن تزوجها لم يرد بها إلا أن يغض بصره ويحصن فرجه أو يصل رحمه بارك الله له فيها وبارك لها فيه » .

.. كيف نحسن الاختيار ؟

ومن هنا أباح الإسلام للرجل ــ كما أباح للمرأة ــ أن ينظر إلى شريكة حياته نظرة فيها أناة وتفكير ، نظرة تقوم على ما يبقى ويستمر لا على ما يغري ويضيع .

ــ قال ﷺ : « إذا خطب أحدكم المرأة ، فإن استطاع أن ينظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل » .

وقال لصحابي أخبره أنه خطب امرأة : هل رأيتها ؟ قال : لا . قال ﷺ : انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما .

أي أن النظر إلى المخطوبة أدعى إلى دوام المعاشرة معها .

ــ ومن هنا أباح الإسلام للمخطوبة أن تجلس مع خطيبها في وجود محرم لها وأن تتحدث مع خطيبها ويتحدث معها من غير خلوة بها فهي ماتزال في فترة الخطوبة أجنبية عن خطيبها ولا يحق لامرأة أن تختلي بأجنبي عنها . قال ﷺ : « لا يخلون رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما » .

ــ والإسلام يعطي للمرأة نفس الحق الذي يعطيه للرجل في هذا المجال ، فلا تجبر فتاة على الزواج من رجل لم تره ولا تريد الارتباط به ، وليس لوليها أن يفرض عليها رجلاً تعاف عشرته .

.. حدث في عهد رسول الله ﷺ ، أن فتاة شكت إليه قالت : يا رسول الله ، إن أبي زوجني من ابن أخيه ليرفع بي خسيسته وأنا عنه راغبة . فأرسل النبي ﷺ إلى أبيها وجعل أمرها في يدها وأصبح هذا الموقف تشريعاً إسلامياً حتى ليروي هذا الحديث الشريف أن الفتاة قالت : يا رسول الله ، قد أجزت ما صنع أبي غير أني أردت أن يعلم الآباء أن ليس لهم في هذا الأمر شيء .

* * *

وكما نصح الإسلام الرجل أن يحسن اختيار المرأة فإنه وبنفس القدر ينصح الفتاة أن تحسن اختيار شريك حياتها ووالد أولادها ينصحها أن تنظر في رجلها إلى ما يبقى لا إلى ما يضيع ويفنى فلا يجب أن يكون المال أساس الاختيار قال ﷺ : « إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إن لا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير » .

وقال ﷺ : « خير النساء بركة أيسرهن مؤنة » .

.. ولا بأس بأن نورد هنا هذه القصة التى تؤكد أن الزواج في الإسلام يجب أن يقوم أولاً على الدين لا على الدنيا وعلى الخلق لا على الجاه .

... بطل هذه القصة شيخ المدينة وعالمها الإمام سعيد بن المسيب تقول القصة كما رواها أصحابها :

.. أن الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ، أرسل إلى هذا الإمام يخطب ابنته لابنه الوليد ولي عهده .

لكن الإمام رفض هذه الخطبة وقال لرسول الخليفة :

إن هذه الدنيا لا تعدل عند الله جناح بعوضة ، فانظر ملك بني مروان كله كم يكون من جناح البعوضة !!

.. قال الرسول : وما عسى أن تجد لابنتك خيراً من هذا الذي ساقه الله إليك « إنك لراع وهى رعية فأحسن رعايتها » .

إن ابنتك يخطبها فارس بني مروان ، وإن لم يكن فهو ابن أمير المؤمنين وإن لم يكن فهو ولي عهد المسلمين وإن لم يكن فهو يقدم مهراً وزنها ذهباً !!

.. قال الشيخ :

أما مسئوليتى عنها فوالله ما رغبت عن ابن أمير المؤمنين إلا لأنها مسئوليتي ، وقد علمت أن الله سيسألني عنها في يوم يكون فيه أمير المؤمنين وابن أمير المؤمنين أثقل الناس حملاً وهم واقفون أمام الله :

يخرجون من حساب السرقة إلى حساب القتل ومن حساب القتل إلى حساب الظلم والبغي ومن حساب الظلم والبغي إلى حساب التفريط في حقوق المسلمين .

ويخف الحساب عن الفسقة والفجرة في زحام الحشر ، ويحشر أمير المؤمنين وابن أمير المؤمنين ومن اتصل بهم وعليهم أمثال الجبال من أثقال الذنوب وحقوق العباد .

فهذا ما نظرت فيه لابنتي ولقد فرغت من الدنيا وما فيها !!

.. تقول الرواية :

وفي اليوم التالي جلس الشيخ في حلقته يلقي درسه في مسجد رسول الله ﷺ وسأله رجل :

ما خير الصداق الذي آخذه لابنتي ؟

قال الشيخ :

كان عمر ينهي عن المغالاة في المهور ، ولو كانت المغالاة مكرمة للنساء لسبق إليها رسول الله ﷺ .

ولقد روى عنه : « خير النساء أنفرهن وجوهاً وأقلهن مهوراً » .

وما تزوج ﷺ ولا زوج بناته بأكثر من ٤٠ أربعين درهماً .. تزوج بعض نسائه على ١٠ عشرة دراهم وأثاث بيت وكان :

« رحى يد وجرة ماء ووسادة من أدم حشوها ليف »

.. ودخل تلميذه ــ عبد الله بن وداعة ــ وسأله الشيخ : لم غبت عنا ؟

قال : ماتت أهلي فانشغلت بها .

قال الشيخ : وهل فكرت في زوجة ؟

قال : ومن يزوجني ولا أملك إلا ثلاثة دراهم ؟!

قال الشيخ : أنا أزوجك .

قال عبد الله : وتفعل ؟!

قال الشيخ : نعم ، قم فادع نفراً من الأنصار .

فلما جاءوا حمد الله تعالى وأثني عليه ثم أعلن أنه زوج تلميذه عبد الله بن وداعة بنته على ثلاثة دراهم .

وأشهدهم على الزواج !!

وصلى عبد الله بن وداعة المغرب ثم عاد إلى بيته وقدم عشاءه ـــ خبزاً وزيتاً ـــ ثم .. إذا الباب يدق .

ويسأل عبد الله : من الطارق ؟

ويسمع الجواب : أنا سعيد بن المسيب !!

وبهت ابن وداعة : يا شيخنا لو أرسلت إلى لأتيتك !!

قال الشيخ :

كرهت أن تبيت الليلة وحدك ، وهذه امرأتك ودفع الشيخ ابنته إلى باب ابن وداعة ورجع في نفس الساعة إلى بيته !!!

* * *

استقرار الأسرة في حسن المعاملة :

وحين تقوم الأسرة ، فإن الإسلام يوفر لها كل عوامل الحماية والاستقرار ، فهو يوصي الرجل أن يكون سمحاً في معاملته لها وأن يحسن معاشرتها .

قال تعالى : ﴿ **وعاشروهن بالمعروف ، فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً** ﴾ النساء .

.. والنبي ﷺ يوصي الرجل أن يتحمل ما قد يضيق به أحياناً يقول ﷺ : « لا يفرك مؤمن مؤمنة ، إن كره منها خلقاً رضي منها آخر » .

وعمر بن الخطاب ذات يوم جاءه رجل يريد أن يطلق امرأته يقول : إني لا أطيقها !! قال عمر : ويحك !! أوَلا تبن البيوت إلا على الحب ؟! فأين الرعاية وأين التذمم ؟!

.. وفي مقابل هذه الوصايا للرجل بالتحمل والصبر والمعاشرة بالمعروف فإن على المرأة نفس الشيء ، عليها أن تساهم في استقرار الأسرة وتوفير جو الود والسكينة في معاشرة الرجل .

يحذر الإسلام المرأة من التمرد على الزوج وهدم عش الزوجية ويجعل استقامتها مع زوجها وحرصها على مرضاته عملاً تتقرب به إلى الله .

.. لقد جاء وفد من النساء إلى بيت رسول الله ﷺ يشكين : « غلبنا عليك الرجال يا رسول الله ، يجاهدون ولا نجاهد ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ولا نفعل !!

فإذا النبي ﷺ يقول : يا عائشة أبلغي من وراءك من النساء أن طاعة منكم لأزواجكن تعدل كل ذلك وقليل منكن من يفعله » .

.. ويزداد تحذير النبي ﷺ حين يجعل عمل المرأة وعبادتها يتوقف قبولها عند الله على حسن معاملتها لزوجها يقول :

« ثلاثة لا ترفع فوق رءوسهم شبراً ــ ويعد من الثلاثة امرأة باتت وزوجها عليها ساخط » .

* * *

الرجل والمرأة كلاهما إنسان :

والإسلام لا يعرف أي سبيل يفرق بين الرجل والمرأة إلا سبيلاً تحتمه طبيعة تكوين كل منهما والوظيفة المطلوبة منه ، الرجل إنسان والمرأة إنسان **﴿ ولكل درجات مما عملوا ﴾**[1] **﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ﴾** النحل .

﴿ فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض ﴾[2] .

.. وإذا كان القرآن الكريم قد ذكر فروقاً بين الرجل والمرأة ، فهي فروق تحتمها طبيعة خلقة كل من الرجل والمرأة ، ولكل عمل ولكل وظيفته فإن الله عز وجل لم يخلق أبداً جنسين لوظيفة واحدة وعمل واحد فالفروق الموجودة بين الرجل والمرأة هي فروق غايتها صالح الأسرة نفسها وتنظيم أمورها .

قال الله عز وجل : **﴿ ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة ﴾**[1]

﴿ الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا ﴾ النساء .

.. هذه الآيات أمامنا تعطى الرجل حقاً يتقدم به على المرأة تعطيه حق القوامة على البيت وتوجيه أموره . فهل في ذلك افتئات على المرأة وظلم لها ؟! أبداً فحين نسأل أنفسنا ومن غير تحيز ومن قبل أن نفكر فيما أوصانا به القرآن وحين ننظر إلى موضع الزواج من أساسه كأصل لتكوين الأسرة التي تقوم على

---

(١) سورة الأنعام . (٢) آل عمران . (١) سورة البقرة .

الجنسين : الرجل والمرأة ، إذا افترضنا أن ارتباط الرجل بالمرأة مجرد شركة لتكوين أسرة وتربية جيل جديد من خلالها فإذا قامت الشركة على رجل وامرأة فمن يقوم على أمر هذه الشركة ؟ من يدير هذه الشركة ويقوم على أمرها ؟

الرجل أم المرأة ؟!!

لا نحتاج إلى جهد كبير لنؤكد أن الرجل أحق من المرأة أولى بأن يقوم على إدارة أعمال هذه الشركة فحتى لو فرضنا أن المرأة تساوي الرجل في القدرة على الإدارة وتحمل المسئولية ، فإن الرجل هو الذي سعى لتكوين هذه الرابطة وهو الذي ضَحّي وبذل من أجل إقامة هذه الشركة .

وذلك ما أشار إليه القرآن الكريم وهو يتحدث عن قوامة الرجل يقول : ﴿ .. **بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم** ﴾ النساء .

.. ثم إن هذه القوامة ليست سيفاً مصلتاً في يد الرجل يسكت به المرأة !! أبداً ولا هي مبرر يعطيه ما ليس له ، فإن الحياة الزوجية وتكوين الأسرة وتربية الجيل الجديد كل هذه الأمور لن يكتب لها النجاح إلا إذا قام التعاون وقامت الألفة والاحترام والثقة بين الزوجين وإلا إذا أدى كل طرف واجبه دون تسلط من طرف على آخر ودونَ انتقاصٍ من قدره .

فإذا كان الرجل يكافح ويسعى ليقوم بالتزاماته نحو نفسه وزوجه وأولاده فإن الزوجة عليها التزامات أيضاً لابد من أن تخلص في أدائها وأن توفر جو السكينة والاستقرار والأنس داخل البيت وأن توفر جو الأمومة المناسب لتربية الجيل المقبل .

... فيما عدا هذا التخصص الوظيفي الذي توجبه طبيعة الخلق في كل منهما فليس هناك أي فرق بين الرجل والمرأة فكلاهما إنسان له نفس الحقوق وعليه

ذات الواجبات ، فهي مخاطبة بأصول الشريعة وفروعها كالرجل ولها نفس الأجر على ذات العمل .

﴿ **للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن** ﴾ النساء .

﴿ **فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض** ﴾ آل عمران .

* * *

.. وقد كان ﷺ نموذجاً للرجال في حسن تعامله مع زوجاته . يقول ﷺ : « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي » .

وقد كان ﷺ خير الناس مع أهله : تواضعاً وتعاوناً ولطف معاملة وحسن معاشرة .

قالت عائشة : « كان ﷺ إذا دخل البيت يكون في مهنة أهله : يخصف نعله بيده ويحلب شاته ويرقع ثوبه » .

القرآن يعالج مشاكل الأسرة :

الإسلام دين الواقع وهو دين الحياة بكل ما في الحياة من آمال وآلام ، فالحياة بطبيعتها لا تسير بالإنسان على ما يهوى ويحب ولكنها تعتوره أحياناً بما يحب ويرضى وأحياناً بما يكره ولا يرضى وهناك ظروف تفرض على الإنسان ما لم يكن في حسبان .

.. والإسلام يطيب لكل مشاكل الحياة ويعالج كل متاعبها ﴿ **وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين** ﴾ الإسراء .

.. والأسرة جزء هام في المجتمع ، فقد تعترض مسيرتها متاعب وقد تلقى في رحلتها مصاعب ، قد تتحول المودة بين الزوجين نفوراً والرحمة غلظة وقسوة وقد تتبدل السكينة قلقاً واضطراباً : والإسلام يعالج مشاكل الأسرة بأسلوب عملي وناجح ، فهو يدعو الرجل إلى التريث والوقوف في وجه العاصفة إن هبت . يقول ﷺ : « لا يفرك مؤمن مؤمنة ، إن كره منها خلقاً رضي منها آخر » .

... وفي القرآن نفس الوصايا : ﴿ **وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيرا** ﴾ النساء .

وبنفس القدر من الوقوف في وجه العاصفة يطالب الإسلام المرأة حتى لا تساهم في هدم عشها بيدها ويجعل الإسلام تحمل المرأة لزوجها ومحاولة مرضاته عبادة يرضى بها عنها الله فحين سأله ﷺ النساء عما يقربهن إلى الله قال : « **إن طاعة منكن لأزواجكن تعدل كل ذلك وقليل منكن من يفعله** » .

والإسلام يعالج كل مشكلة بما يناسبها ، فإن العلاج الذى يصلح لحالة قد لا يصلح لأخرى .

... يحمل الإسلام الرجل مسئولية الحرص على بيته ويطالبه دائماً أن يحاول رأب الصدع حتى لا يسوقه انفعاله إلى مزيد من النفور ويقدم القرآن للرجل هذه النصائح على الطريق :

.. قال الله عز وجل : ﴿ **واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن ، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا** ﴾ النساء .

﴿ **وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق ا لله بينهما** ﴾ النساء .

فالموعظة الحسنة ومحاولة الإقناع بالتى هي أحسن وتهيئة الظروف ذلك أول

العلاج ، فإن لم يكن فالهجر في المضاجع دون خروجها من بيت الزوجية ، وذلك يعنى مجرد لفت نظر المرأة إلى أنوثتها ووجوب حرصها على زوجها . فإن لم يجد ذلك كله بأن فسد تفكيرها وساء تقديرها فهناك وسيلة أخرى .

﴿ واضربوهن ﴾

وهو ضرب غايته أن تنقاد المرأة وأن يزول الإباء عن نفسها لتحفظ بيتها وليس الغرض منه أبداً إذلال المرأة أو إهانتها بل لفت نظرها إلى واجبها في بيت الزوجية وعودتها إلى صوابها فإن لم يجد فلا يباح أبداً .

.. والذين يستنكرون الضرب كوسيلة للتأديب أحياناً ـــ فاتهم :

أولاً : إن الضرب وسيلة للعلاج في المرأة كما في الرجل عند الانحراف .

قال تعالى : **﴿ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ﴾** النور .

ثانياً : الضرب وسيلة للتأديب في مواقف كثيرة شاذة فهو عقوبة مقررة بين الجنود في دول العالم .

ثالثاً : هو أخف مرارة من هدم البيوت وتشتيت الأولاد بالطلاق .

.. ثم إن الضرب الذي ينصح به القرآن الكريم لا يزيد عما يعتاده الرجل في تقويم ولده الحريص عليه الأسير لديه ، حتى إن كتب الفقه الإسلامي لتنص على أن الضرب « بسواك ونحوه » فهو ضرب غير مبرح ولا موجع وإنما هو فقط وسيلة للفت نظر الزوجة إلى واجبها .

يقول الإمام محمد عبده : « إن مشروعية ضرب النساء أمر يحتاج إليه عند فساد البيئة ، وغلبة الأخلاق الفاسدة ، وهو لا يباح إلا إذا رأى الرجل أن رجوع المرأة عن نشوزها يتوقف عليه » وأخيراً :

فهو وسيلة اضطرارية ، مكروهة لا تباح في كل حالة ولا مع كل امرأة .

... قال النبي ﷺ لأصحابه يوماً : « بلغني أن رجالاً يضربون أزواجهم ! أما والله لا تجدون أولئكم بخياركم » .

* * *

ومهما كان الأمر ، فإن الذي قرر هو الذي خلق وهو أعلم بمن خلق وهو الخبير بما يصلح النفوس فلا تمرد ولا اعتراض ﴿ **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً ، أن يكون لهم الخيرة** ﴾ الأحزاب .

.. لقد سأل معاوية بن حيدة رسول الله ﷺ :

ما حق امرأة أحدنا عليه ؟ قال : أن تطعمها إذا طعمت وتكسوها إذا اكتسوت ولا تضرب الوجه ولا تقبح ولا تهجر إلا في المبيت .

.. وحين يستنفد الرجل كل وسائل الترضية ، فإنه أيضاً مطالب أن يتروى وألا يتعجل فك هذا الرباط ولقد وضع رسول الله ﷺ أمام أعين الرجال هذا المبدأ الفريد الذي يجعل كرامة الرجل وكرمه في تحمله وأناته مع زوجته .

قال : لا يغلبن إلا كريماً ولا يغلبهن إلا لئيم .

.. وحين يشتد الخلاف بين الزوجين فإن الإسلام يعطى المجتمع كله حق التدخل حتى لا يهدم بيْتاً فيه ، ويتمثل ذلك في اختيار أقرب الناس إلى الزوجين وأقدرهم على التوسط لإنهاء الخلاف .

قال الله عز وجل : ﴿ **وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما** ﴾ النساء .

﴿ وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير ﴾ .

.. فإذا عجزت كل الوسائل وتحولت الحياة الزوجية إلى نفور دائم ومتاعب متجددة فإن آخر الدواء الكي ــ ليس الزواج سجناً بحكم غلق بابه ، وإنما هو تفاهم واستقرار وأمن وود وحب ويوم يزول ذلك فلا أمل في بقائه وآخر الدواء هنا هو : « الطلاق » .

.. ويضع الإسلام الطلاق في يد الرجل لأنه الذي سعى لتكوين الأسرة وهو الذي أنفق والتزم بأن يقوم بكل مقوماته وأن يوفر كل حاجاتها ، وهو لهذا أحرص على سلامة بيته واستقرار أسرته وأمامه هذه المبادئ التي يتعامل على أساسها من مثل قوله ﷺ : « تزوجوا ولا تطلقوا فإن الطلاق يهتز له عرش الرحمن » و « أبغض الحلال إلى الله الطلاق » .

* * *

الإسلام لا ينسى مشاعر المرأة :

وإذا كان الإسلام قد جعل الطلاق في يد الرجل نظير أنه الذي سعى لتكون الأسرة وأنه الغارم عند تأسيسها وعند هدمها فإنه مع ذلك لم ينس مشاعر المرأة ولم يهمل حقها حين يسيئ زوجها عشرتها أو يتعمد التضييق عليها أو يعجز عن توفير حقها المشروع عندما يحدث شيء من ذلك ، فإن الإسلام يجبر الرجل على قبول التفريق إذا أثبتت الزوجة ما يؤيد دعواها وينفي وفاءه بحقها . يقول الله عز وجل : **﴿ فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به ﴾** البقرة .

يروي الإمام البخاري أن امرأة ثابت بن قيس قالت : يا رسول الله ؛ ثابت

ما أعيب عليه في خلق ولا دين ، ولكني أكره الكفر في الإسلام إني لا أطيقه !!

قال النبي ﷺ — وقد علم ما أخذت منه — :

« أتردين عليه حديقته ؟ » قالت : نعم .

قال له ﷺ : « يا ثابت اقبل الحديقة وطلقها » .

وهذا هو النظام المعروف في الفقه الإسلامي باسم « الخلع » .

.. وعندما يتم الطلاق والتفريق ، فإن الرجل يطالب بالوفاء بحقها ورعايتها والإنفاق عليها مدة من الزمن تفيء فيها إلى نفسها وتحسن اختيار وسيلة لعيشها وتتأكد من براءة رحمها وهي الفترة التي تسمى « العدة » .

يقول القرآن الكريم يفصل حقوق المرأة عند المفارقة :

﴿ وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئا ، أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبينا ﴾ النساء .

﴿ أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن ﴾ الطلاق .

﴿ وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن ، فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن .. ﴾ الطلاق .

﴿ والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ، ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ البقرة .

ومشكلة الطلاق :

مشكلة واقع لا سبيل إلى إنكاره ولا سبيل إلى المغالطة والخداع في وقوعه ، فإن الخلافات التى تنشأ – أحياناً بين الزوجين مشكلة اجتماعية لا سبيل إلى

إنكارها ولابد من البحث عن علاج لها حتى لا تتحول الحياة الزوجية جحيماً لا يطاق :

إن القلوب إذا تنافر ودها مثل الزجاجة كسرها لا يجبر

الإسلام يعالج المشكلة من كل أبعادها ويصف لها العلاج المناسب لأنه تنزيل من حكيم حميد .

والذين كانوا يعيبون على الإسلام إباحة الطلاق ــ عند الضرورة ــ أجبرهم الواقع على قبوله فسمحوا به في تشريعاتهم بعد أن عدوه عيباً على الإسلام فرجال الكنيسة الذين كانوا يقولون : إن من يطلق يزني ومن يتزوج مطلقة يجعلها تزني اضطرتهم الظروف إلى تشريع الطلاق وإباحته .

فقط هم أباحوه أمام القاضي وبالشهود الذين يشهدون .

.. ولا أحسب الشهادة في العلاقات الزوجية إلا إعلان فضائح تضر الأسرة ولا تنفعها وتقطع الأواصر ولا تجمعها .

* * *

الإسلام حفظ للمرأة كرامتها :

ونريد أن نختم الحديث عن المرأة ببيان هذه الحقيقة التي تقول : إن المرأة لم تظفر بحقها الكامل ولم تحصل على حفظ كرامتها إلا في ظل التشريع الإسلامي .

.. فإذا صرفنا النظر عن حرية المرأة المتعلقة بحرية الجسد والعري والانحراف فلن نحتاج إلى جهد لنثبت أن المرأة ــ وإلى اليوم ــ لا تجد نظاماً يحفظ كرامتها ويعلي شأنها ويعترف بأهليتها في كل تصرف كما فعل ذلك الإسلام .

.. في القوانين الرومانية القديمة كانت المرأة قاصراً كالرقيق لا تملك تصرفاً ولا تطالب بحق .

.. وفي الفلسفة الهندوكية القديمة كانت المرأة حطاماً ترتبط قيمته بقيمة الرجل وتنتهي حقوقها بانتهاء حياته بل إن حياتها كلها كانت مرتبطة بحياة زوجها . فقد كانوا يحرقون جسدها حية على ضريح زوجها بعد موته تعبيراً عن تبعيتها الكاملة له وضياعها بضياعه وقد تم ذلك بالتمام والكمال في عصرنا الحاضر عندما حرقت زوجة المهاتما غاندي بعد موته ـــ حرقوا جسدها ـــ على قبره وهذا يكفي لبيان قدر المرأة هناك .

.. وفي القرن السابع عشر ـــ حيث منع آباء الكنيسة تعدد الزوجات من غير نصوص صريحة تحرم التعدد في الكتب المقدسة ـــ لم يكن الدافع إلى منع التعدد احترام المرأة أو مراعاة مشاعرها !!

وإنما كان الدافع ـــ كما قالوا هم ـــ أن الاكتفاء بواحدة أخف الشرور لمن لا يقدر على الرهبنة والبعد الكامل عن النساء !!

.. وقريب من هذا كانت نظرة العرب الجاهليين إلى المرأة كانوا يرونها شيئاً غير مرغوب فيه ومتاعاً يمكن أن يورث كما يورث المتاع ، بل كانوا يتشاءمون بمولدها ويعاجلونها بالدفن في مهدها .

.. والقرآن الكريم يحكي لنا ذلك في سورة النحل : ﴿ **وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون** ﴾ .

.. وينقل الدكتور / علي عبد الواحد وافي في كتابه « حقوق الإنسان في الإسلام » هذا النص ـــ الذي يوضح مكانة المرأة في العصر الحديث في الغرب المتحضر !! وهو نص من القانون الفرنسي المدني يقول :

« إن المرأة المتزوجة حتى ولو كان زواجها قائماً على أساس الفصل في ملكيتها وملكية زوجها ، لا يجوز لها أن تهب ولا أن تنقل ملكيتها ولا أن ترهن ولا أن تملك بدون اشتراك زوجها في العقد وموافقته عليه موافقة كتابية » .

« ومن أجل هذا تقضي قوانين الغرب كله — ويقضي العرف أيضاً — أن المرأة بمجرد زواجها تفقد اسمها واسم أسرتها فلا تعود تسمى — فلانة بنت فلان — بل تحمل اسم زوجها وأسرته فيقولون مثلاً : جاكلين كنيدي ، جاكلين أوناسيس » .

* * *

لكن الإسلام — شريعة الله — هو الشرع الوحيد الذي حفظ للمرأة أهليتها وكيانها وشخصيتها فلا يقبل الإسلام أن تعيش المرأة ظلاً لزوجها تضيع بضياعه بل هي شخص مكلف كالرجل له حقوق وعليه واجبات وهي مسئولة عن نفسها ومطالبة أن تنمي مداركها .

قال ﷺ : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » ثم إن النبي ﷺ ضرب أروع المثل فى ذلك :

تروي كتب التاريخ أن — الشفاء العدوية — وهي سيدة من بني عدي كانت كاتبة في الجاهلية كانت تعلم الفتيات وأن حفصة بنت عمر أخذت عنها القراءة والكتابة قبل زواجها بالنبي ﷺ فلما تزوجها رسول الله ﷺ وانتقلت إلى بيت النبوة طلب إلى الشفاء هذه أن تواصل تثقيفها وأن تعلمها تحسين الخط وتزيينه كما علمتها أصل الكتابة !!

.. ولا يحجر الإسلام أبداً على المرأة في أي عمل تؤديه تنفع به نفسها أو مجتمعها مادام يتلاءم مع قدراتها ولا يعطل واجبها نحو بيتها وأولادها .

ومادامت تخرج إلى عملها في حدود الوقار والاحتشام والبعد عن نطاق الفتنة ومظاهر الميوعة والخلاعة .

* * *

وهذا تاريخ الإسلام مع المرأة :

وفي تاريخ الإسلام نساء شهيرات عرفهن التاريخ مهاجرات كالرجال إلى الحبشة وإلى المدينة فراراً بدينهن ويكفي في ذلك شهادة القرآن الكريم وهو يخاطب المؤمنين :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن ، فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار ﴾ الممتحنة .

وكانت لهن بيعة كبيعة الرجال متميزة . قال تعالى في سورة الممتحنة :

﴿ يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف ، فبايعهن واستغفر لهن الله ﴾ .

* * *

.. ويحفظ لنا التاريخ أسماء سيدات شهيرات من نساء المسلمين قعدن مقعد المعلم للدرس والتاجر للكسب والمجاهد في الميدان .

.. فالسيدة نفيسة بنت الحسين بن علي رضي الله عنهم أجمعين كان لها في مصر مجلس علم يحضره رجال ويناقشونها في مسائل الفقه والحديث ، وممن أخذ عنها الإمام الشافعي نفسه .

ويذكر التاريخ أن أم حكيم بنت الحارث خاضت معركة بين الروم والمسلمين وهي عروس لم تفارقها رائحة العرس ، وقد استشهد زوجها على مشهد منها فشدت ثيابها عليها عمود الفسطاط وصرعت به سبعة من الأعداء عند القنطرة المسماه باسمها حتى اليوم « قنطرة أم حكيم » .

.. وقد نقل صاحب كتاب « شهيد المحراب » مواقف كثيرة للمرأة تجاهد وتعلم وتتعلم وتتاجر وتكسب .

يقول : « إن حياة المرأة المسلمة لم تقتصر على القبوع في البيوت .

تستقبل زوجها إذا حضر وتودعه إذا انصرف ، ولكنها كانت تزاول كل ما يزاوله الرجل من أعمال محصنة بإيمانها وعفافها » .

ثم ينقل هذا الموقف :

.. قالت قيلة الأنمارية : رأيت رسول الله ﷺ عند المروة يحل من عمرة له ، فجلست إليه فقلت : يا رسول الله ، إني امرأة أبيع وأشترى ، فربما أردت أن أبيع سلعة فاستام بها أكثر مما أريد أن آخذها بالذي أريد ، فقال ﷺ : لا تفعلي يا قيلة ، إذا أردت أن تشتري سلعة فاستامي بها الذي تريدين أن تأخذي به ، أعطيت أو منعت .

ونقل أيضاً أن السيدة أم الخير الحجازية تصدرت حلقات وعظ وإرشاد المسلمات بجامع عمرو بن العاص في القرن الرابع الهجري .

هذه بعض جوانب عن حياة المرأة المسلمة في المجتمع الإسلامي تشارك في تقدم مجتمعها وتسهم بكل ما تستطيع في إثراء الحياة في بلادها .

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

* * *

.. هذا هو تاريخ الإسلام مع المرأة المسلمة ليس فيه أبداً أن المرأة يجب أن تعيش سجينة بيتها أو محجوراً عليها في بيت زوجها لا ترى النور ولا تحس الحياة !!!

.. والذين فسروا قول الله عز وجل :

﴿ وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾[1] .

لم يقولوا أبداً أن هذا يعني السجن المؤبد في البيت ولا التحريم المؤكد للعمل في غير المنزل .

.. وإنما قالوا : هذا توجيه إلى تقدير واجبها الأول الذي لا يستطيع غيرها أن يقوم به ــ كاملاً ــ وهو تهيئة جو السكينة في البيت وأداء حق الأمومة للأطفال .

.. ومن العلماء من يقول :

إن المقصود « أقررن عيناً في بيوتكن » .

أي اجعلن بيوتكن مصدر السعادة وقرة العين لكن ولأزواجكن .

---

(١) سورة الأحزاب .

الفصـــل الرابـــع

الإسلام يربي المجتمع

القرآن ينظم حياة المجتمع :

نحن نؤمن أن الدين نظام للحياة منهج للتعامل قانون للعلاقات ، الدين قواعد تضبط سلوك الإنسان مع أخيه الإنسان وتحدد له هدفاً شريفاً في حياته ، ونحن على يقين أننا إذا احترمنا نظام الدين وطبقناه ، وإذا قدرنا منهج القرآن وعايشناه ، وإذا ارتبط المسلم بالمجتمع على أساس من معرفة الله وخشيته وتقواه فتلك حقيقة الدين ويومئذ يمتلئ المجتمع كله أمناً وإيماناً وخيراً وسعادة . يقول القرآن الكريم :

﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾[1] .

﴿ ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ .

.. وفي رأينا أن الإسلام يربط الآخرة بالأولى والدين بالدنيا وأن الذي ينعزل عن الناس وعن الحياة لا يملك أن يخدم دينه ولا أن يحقق دنياه !!

.. فمهمة الدين أن يقود الإنسان في معركة الحياة وكما قال الرسول : « الرجل الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم » .

وشر الناس عند الله هذا المنعزل عن الناس المنطوي على نفسه .

سأل النبي ﷺ أصحابه يوماً : أفلا أنبئكم بشراركم ؟

---

(١) سورة الأعراف .

قالوا : بلى إن شئت يا رسول الله .

قال : « فإن شراركم الذي ينزل وحده ويجلد عبده ويمنع رفده » .

.. ذلك أن الإسلام يرى أن كل أعمال الدنيا يمكن أن تتحول إلى أعمال للآخرة ، كل خطوة يتقدم بها المسلم يسيطر على موقع في دنياه ممكن أن تتحول هذه الخطوة إلى خدمة لدينه ومرضاة لربه ، الصانع في صنعته العامل في عمله التاجر في تجارته الموظف في مكتبه الجندي في موقعه طالب العلم في محرابه كل أولئك حين يخلصون العمل لله وينفعون به أمتهم فهم مجاهدون مأجورون .

.. فلحظات العمل للدنيا في أي مِرْفق في المجتمع لا تقل قبولاً عند الله عن لحظة التعبد والتأمل في محراب .

* * *

.. الطالب في الجامعة حين يتخصص في فرع من فروع المعرفة فيبرع فيه وينتج ويبتكر هو خادم لدينه بخدمته لدنياه .

إذا تخصص مثلاً ــ طالب في علم الذرة وبرع فيه واستطاع أن يطوع علمه ليحقق لبلاده ما يجعل لها مكانة بين الأمم ، مثل هذا الطالب الذي يمكن أمته من السيادة والريادة هو في سبيل الله هو ــ بعلمه ــ في عبادة كالمتفرغ للصلاة المتبتل إلى الله !!

فقط كل ما يطلب منه الإخلاص في عمله لله والاندفاع بجهده لخدمة الناس وتيسير أمور حياتهم .

ــ مخترع القنبلة الذرية يهودي رفض أن يعطى الغرب سر اختراعه في الحرب العالمية حتى يتعهدوا بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين .. وقد كان !!

وبهذا أثبت هذا العالم وهو فرد أنه أجدى على أمته أكثر من جيش من المتعطلين !!

.. ومن أجل هذا ـ من أجل أن الدين خدمة للمجتمع وتنظيم دقيق للحياة فيه فنحن نجد القرآن الكريم يوثق الروابط بين الإنسان وأخيه الإنسان ويوفر لكل فرد في المجتمع المسلم قدراً كبيراً من الأمن على نفسه وعلى ماله وعلى عرضه لكى يعمل وهو آمن وينطلق وهو مطمئن ، وتلك أول علائم الصحوة في تنظيم الإسلام لهذه الحياة .

ويذكر القرآن الناس بنعمة التآلف بين أفراد المجتمع :

﴿ **واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ..** ﴾ آل عمران .

ـ ويأمر بالتعاون على الخير والبر ﴿ **وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان** ﴾ المائدة .

ـ وينهى القرآن عن كل ما يفسد العلاقات بين الناس ، ينهى عن السخرية وعن الغيبة والنميمة وعن سوء الظن :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ، ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ، يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ، إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا** ﴾ سورة الحجرات .

.. ويقيم القرآن أمر الناس على ما فيهم من طباع لأعلى ما يجب أن يكون فلا ينسى الخلاف إذا وقع ، إنما يعالجه بما يقضى على آثاره ، فيأمر بالصلح بين المتخاصمين وبالوقوف ضد الباغي .

.. يقول القرآن الكريم في سورة الحجرات : ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين** ﴾ .

.. ويأتي النبي ﷺ وهو المبلغ عن الله فيربط إيمان المؤمن بمحبته الخير للناس يقول : ﴿ **لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه** ﴾ .

ويضع هذا المبدأ الذي يفرض الحرص على حسن العلاقات بين الناس والذي ينفي الإيمان عمن لا يقدر الناس قدرهم ولا يسعى لخيرهم .

يقول ﷺ : « ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ويأمر بالمعروف وينه عن المنكر ﴾ .

« ليس منا من بات شبعان وجاره طاو »

.. ويجعل الإحساس بالآخرين والتخفيف عنهم من أفضل القربات إلى الله سألوه ﷺ مرة : ما أفضل ما يتقرب به العبد إلى الله ؟

قال : إدخال السرور على المؤمن . قالوا : وكيف إدخال السرور عليه ؟

قال : فك كربته وقضاء حاجته وسداد دينه .

.. ويجعل العلاقة الطيبة بالناس مطلباً إلهياً يرضى عنه الله . أخبر ﷺ أن الملائكة تلقت روح امرئ مؤمن ممن كان قبلكم فسألوه : هل عملت خيراً ؟ قال : كلا . قالوا : تذكر . قال : كنت أداين الناس فآمر فتياتى أن ينظروا المعسر ويتجاوزوا عن الموسر .

قال الله : تجاوزوا عن عبدى فأنا أولى بذلك منه !!

.. وتصل درجة اهتمام الإسلام بالناس أن يجعل التخفيف عنهم ومواساتهم

من أعظم القربات إلى الله حتى من الاعتكاف للعبادة .

.. تروى كتب السنة أن عبد الله بن عباس كان معتكفاً في مسجد رسول الله ﷺ فإذا رجل مهموم !! ويسأله ابن عباس :

ماذا بك ؟ قال الرجل : ديون لزمتني لفلان ــ ولا أجد وفاء لها !! قال ابن عباس : أفلا أكلمه ؟ قال الرجل : بلى إن أردت . فخرج ابن عباس من المسجد قاصداً صاحب الدين . فقال له الرجل : يا بن عم رسول الله : أنسيناك ما كنت فيه ــ يقصد الاعتكاف .

قال ابن عباس : والله ما نسيت ولكني سمعت صاحب هذا القبر ــ وأشار إلى قبر رسول الله ﷺ ــ يقول ــ والعهد به قريب « من مشي في حاجة أخيه كان خيراً له من اعتكاف عشر سنين ومن اعتكف ليلة واحدة مخلصاً لله باعد الله بينه وبين النار كما باعد بين المشرق والمغرب !!

* * *

.. هذه أسس للعلاقات في المجتمع المسلم لا غنى للناس عنها ولا يتحقق الإسلام إلا بها وصدق رسول الله ﷺ وهو يقول :

« خير الناس أنفعهم للناس »

اهتمام الإسلام بأمور المجتمع :

والإسلام يهتم بأمور المجتمع في حاضره ومستقبله يهتم بالإنتاج والنشاط يهتم بالعمل والكفاح يهتم بأداء الواجب وتحمل المسئولية .

ــ يطالب الإسلام كل فرد في الأمة أن يكون له مكانه وأن يكون له عمله وإنتاجه الذي يثبت به وجوده ويحقق عن طريقه شخصيته .

ـــ يطلب القرآن من الناس ـــ كل الناس ـــ أن يعملوا وأن ينتجوا . قال تعالى : ﴿ **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون** ﴾ التوبة .

ـــ ويربط القرآن بين قيمة العمل ودرجة الأجر .

قال تعالى : ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** ﴾[1] .

ـــ ويذكر القرآن أن العمل هو السند الوحيد للإنسان في الدنيا وفي الآخرة .

ـــ قال الله عز وجل وهو يؤكد استجابته للداعين ﴿ **فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض** ﴾ آل عمران .

﴿ **من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة** ﴾ .

ـــ ويقسم في القرآن ـــ وما على الله من قسم ـــ ولكنه يؤكد للناس هذا المبدأ أن الإنسان خاسر إلا من ضم مع الإيمان عملاً صالحاً يلقى به الله ﴿ **والعصر إن الإنسان لفي خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر** ﴾ .

ـــ ويجعل القرآن العمل ثمناً لتكريم العاملين عند الله يقول سبحانه :

﴿ **وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون** ﴾ الزخرف .

﴿ **ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون** ﴾ النحل .

---

(١) سورة الزلزلة .

ـ ويؤكد أن الآخرة سوف تكون معرضاً لصحائف الأعمال :

﴿ يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم .. ﴾[٢] .

* * *

.. ويوضح النبي ﷺ مفهوم هذه الآيات حتى لا يدع مجالاً لكسول أو مهمل ، فيقسم من أول أيام هجرته أن الجزاء من جنس العمل :

يقول ﷺ : « .. والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ولتحاسبن على ما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً » .

.. ويحذر أقواماً من أن يأخذوا الدين ثمرة من غير جهد أو جزاء من دون عمل . يقول ﷺ :

« ليس الإيمان بالتمني ، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل وإن قوماً غرتهم الأماني وقالوا : نحن نحسن الظن بالله وكذبوا ، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل » .

.. ويطبق ﷺ هذا الفهم السليم للدين يطبقه في مجتمعه ذات يوم كان أصحابه يثنون على فتى جلداً لكنه تبتل عابداً زاهداً معتكفاً للعبادة فسألهم ﷺ : ومن يعوله ؟ قالوا : أخوه . قال ﷺ : أخوه أعبد منه !!.

* * *

---

(٢) سورة الزلزلة .

.. أليس في هذه النصوص ما يؤكد أن الإسلام يفرض أن يكون المسلم منتجاً قبل أن يكون مستهلكاً ؟!

وشغالاً قبل أن يكون أكالاً ؟!

وعاملاً لا عاطلاً ؟!

هذا هو الإسلام لكل إنسان في مجتمعه عمل ولكل فرد إنتاج وعلى كل أن يثبت وجوده من خلال ما يقدّم لمجتمعه من خدمات :

يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « إني ليعجبني الرجل فإذا سألت عن حرفته ، فقيل لا حرفة له سقط من عيني !! » .

* * *

.. وحين يطالب الإسلام كل مسلم أن يعمل وينتج ، فهو يحقق له جانب ذلك كل ما يحمي شرفه ويصون عرضه ويحرس ماله ونفسه .

يقول ﷺ : كل المسلم على المسلم حرام :

دمه وماله وعرضه

كان ﷺ يحرص على كرامة كل فرد في المجتمع ويوصي أصحابه بالحرص على سمعة الناس وكرامتهم وينهاهم عن إحراج أي إنسان أو التشهير به حتى لو انحرف وترك الطريق المستقيم .

.. في كتب السنة أن رجلاً اسمه : حرملة بن زيد الأنصاري كان في المدينة منافقاً فلما حسن إسلامه جاء إلى النبي ﷺ .

يقول : يا رسول الله إن لي إخوة على النفاق كنت رأساً فيهم أفلا أدلك

عليهم ؟ فإذا النبي ﷺ يقول : لا يا حرملة ، من أتانا استغفرنا له كما استغفرنا لك ، ومن أصر فالله أولى به ، ولا تخرقن على أحد ستراً .

.. وكان يقطع الطريق على الذين يحلو لهم أن يحملوا دائماً سيئات الآخرين فكان يقول لأصحابه :

« لا يبلغني أحدُكم عن أحد من أصحابي شيئاً فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر » .

* * *

.. وكان أصحابه ﷺ نموذجاً لهذا الأدب الذي رباهم عليه فقد كان عمر يكره أن يكثر الناس في محاضر محاسبة أهل البشر ، رأى رجلاً يقاد لإقامة الحد عليه ، والناس من حوله يتأملونه فغضب وضاق بالناس وقال لهم : « ألا ، لا مرحباً بهذه الوجوه التي لا ترى إلا في الشر » .

.. ولما ولي الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز وأحس أن البطانات تتسابق إليه ، فأراد أن يقصي بطانات السوء عنه فخطب في الناس :

« أيها الناس : من أراد أن يصحبنا فليصحبنا بخمس : يوصل إلينا حاجة من لا تصل إلينا حاجته ، ويدلنا على العدل ما لا نهتدي إليه ، ويكون عوناً له على الحق ، ويؤدي الأمانة لنا وللناس ، ولا يغتب عندنا أحداً ، فمن قدر على ذلك فليصحبنا وليدخل علينا ، ولم يقدر فلا يصحبنا ولا يدخل علينا » .

* * *

بين الحاكم والمحكوم :

ويواصل القرآن الكريم توجيهه للأمة كلها فينظم العلاقة بين الحاكم والمحكوم بين الشعب والمسئولين عنه فهو يقيم الأمر بين الجانبين على مبادئ لا غنى للمجتمع عنها ، يقيم العلاقة بين الحاكم والمحكوم على العدل من جانب الحاكم وعلى الطاعة من جانب المحكوم ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان** ﴾ النحل .

﴿ **ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى** ﴾ المائدة .

الحق أحق أن يتبع ﴿ **أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمّن لا يهدى إلا أن يهدى** ﴾ يونس .

﴿ **وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم** ﴾ النساء . .

وتقدم السنة النبوية المطهرة نماذج للعدل الإلهي الذي يريده الله من الكبار .

تروي كتب السنة هذه الأحاديث التي تحذر من التجاووز وتدعو إلى تحرّى الحق والعدل والمساواة بين الناس في كل الظروف ، وتكشف السنة عن أن ضياع الأمم وهلاكها مرتبط دائماً بتجاوز الحق والعدل والتحيز بسبب قرابة أو شفاعة أو منفعة ذاتية . يقول ﷺ : « إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد » .

ولهذا الحديث قصة فإن امرأة سرقت من قبيلة بني مخزوم وكبر عليهم أن يقام عليها الحد فاستشفعوا إلى الرسول ﷺ بحبيبه أسامة بن زيد فإذا رسول الله يغضب ويقول لأسامة : أتشفع في حد من حدود الله !! إنما هلك من كان قبلكم بذلك ، كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها .

ويجعل النبي ﷺ تحيز الحاكم أو ميله عن الحق في قضية بعينها محبطاً لعمله كله ومضيعاً لثمرته عند الله . يقول ﷺ : « من استعمل رجلاً على عصابة يرى أن فيهم من هو أرضى لله منه ، فقد خان الله ورسوله » .

وعندما يحدث خلاف أو نزاع بين طوائف الأمة فإن القرآن هو المرجع الذي ينتهي عنده الخلاف ﴿ **فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله** ﴾[1] فإذا لم نجد حل الخلاف في كتاب الله فالمرجع سنة رسوله ﷺ . فإذا لم نجد فالمرجع أهل الحل والعقد من العلماء المتخصصين .

﴿ **ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم** ﴾ النساء .

ما أجمل مقالة عمر بن الخطاب وهو يبين حق الحاكم وحق المحكوم في هذه المناقشة بينه وبين وال من ولاته :

سأل عمر هذا الوالي : ماذا تفعل إذا جاءك سارق ؟

قال الوالي : اقطع يده .

قال عمر : إذن فإن جاءني منهم جائع أو عاطل قطعت يدك أنت !! ثم قال له : يا هذا ، إن الله استخلفنا على عباده :

لنسد جوعتهم ونستر عورتهم ونوجد لهم حرفتهم

فإذا أعطيناهم هذه النعم تقاضيناهم شكرها ، إن الله خلق الأيدى لتعمل فإذا لم تجد في الطاعة عملاً ، التمست في المعصية أعمالاً ، فاشغلها بالطاعة ، قبل أن تشغلك بالمعصية .

---

(١) سورة النساء .

والإسلام وهو ينصح الحاكم ويخطط لنجاح حكمه ، فإنه لا ينسى المحكوم وإنما يقدم له من التوجيه والنصح ما يضمن ولاءه للنظام ونصحه للقائمين عليه ، فالدين النصيحة كما قال ﷺ .

أوجب الإسلام على الفرد المسلم أن يكون عامل استقرار في مجتمعه الذي يعيش فيه وأول أسباب الاستقرار في المجتمع الثقة المتبادلة بين الحاكم والمحكوم فلا يجرى المحكوم وراء الإشاعات ولا يتمرد على حاكميه ولا يفتح الحاكم إذنه للدس بين الناس .

قال النبي ﷺ : « لا يبلغنى أحد منكم عن أحد من أصحابي شيئاً فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر » .

وأول أدلة الثقة تقبل الأمور بالرضا والطاعة حتى ليقول ﷺ « على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره ، ما لم يؤمرْ بمعصية ، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » .

وحتى لو قصّر الحاكم في بعض أموره فليس للمحكوم أن يقصر ولا أن يتمرد ولا أن يضيق أو ينشر الشائعات والفوضي في المجتمع ، فما تضار المجتمعات بشيء قدر ما تضار بالشائعات التي تفقد الثقة وتولد الاضطراب !!

المسلم دائماً عامل استقرار وطمأنينه وثقة في كل نواحي الحياة فى الأمة ، يقف دائماً مع كل ما يوحد ويجمع بعيداً عما يفرق ويشتت حتى ليقول ﷺ لمن سأله : أرأيت إن منعونا حقنا ؟!

قال ﷺ : « أدوا الذي عليكم وسلوا الله الذي لكم » .

* * *

والعلاقات الدولية :

يقيمها القرآن على المروءة والبر بين الناس ما لم يبدءوا بعدوان ﴿ **لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون** ﴾[1] .

ـ وعندما يقع عدوان فإن رد العدوان هو الواجب ولا مزيد ﴿ **وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا** ﴾ البقرة .

لكن السلام أصل في الإسلام وما عداه طارئ ينتهي بانتهاء ظروفه . قال تعالى : ﴿ **وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله** ﴾ الأنفال .

* * *

هكذا يستوعب القرآن كل قضايا الحياة وكل حاجات الناس ﴿ **ما فرطنا في الكتاب من شيء** ﴾ الأنعام .

وتتضمن آياته المنزلة موقف السنة المطهرة من القرآن وأنها المذكرة التفسيرية لكل ما فيه توضح مبهم الآيات وتفصل مجملها وصدق الله العظيم ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم** ﴾ النحل .

﴿ **وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله** ﴾ الحشر .

وصدق الرسول الكريم : « تركت فيكم ما إن أخذتم به ، لن تضلوا بعدي : كتاب الله وسنتي » .

---

(١) سورة الممتحنة .

فهرس الموضوعات

الصفحة

الفصل الأول

الفصل الثانى .

الفصل الثالث

تربية الإسلام للأسرة

الفصل الرابع

الإسلام يربى المجتمع

رقم الايداع ٨٨/٢٢٥٦
الترقيم الدولى ٠٠١٢٠٠ -١٠٦- ISBN ٩٧٧
مطبعة نهضة مصر

* تاريخ القرأن وتدوينه .
* كيف بدأ الوحى .
* كيف وصل إلينا القرأن .
* ترتيبه فى سوره وأياته .
* أدب التلاوه .
* أثره فى لغة العرب ووحدتهم .
* حقيقة الآعجاز القرأنى .
* القرأن يربى الفرد .
* القرأن يعالج مشاكل الأسرة .
* الأسلام يربى المجتمع .
* بين الحاكم والمحكوم .
* العلاقات الدوليه .



١١٠ قرشا